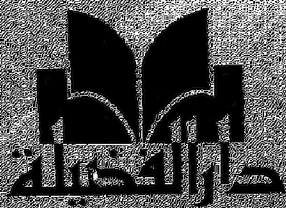


التوبة

للإمام أبي أسيد الخدري ٢٤٣ هـ
في أحكام التوبة للإمام النابلسي



تحقيق
د. أحمد عطى



Bibliotheca Alexandrina

بَدَّوْ مَنْ أُنَابَ إِلَى اللَّهِ

دار الفضيلة

للنشر والنزيع والنصدي

الإدارة، القاهرة - ٢٢ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة - ت ٦٦٢٢٢٢ - فاكس ٦٦٢٢٢٢
المكتبة، ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٢١
دولة الإمارات، دبي - ديرة - صرب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٩٤٩٦٦

جميع الحقوق محفوظة للناشر

تحقيق
عبد الفتاح أحمد رعيطة

الثوب

للحارث بن أسد المحاسبى ٢٤٣ هـ
وأحكام الثوب للإمام النابلسى

دار الفضيحة



المحاسبى الإمام

نشأته :

في أوائل النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى على وجه التقريب ولد الإمام الجليل الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبى فى البصرة . من أب كان على جانب كبير من الثراء ، وجانب غير قليل من الثقافة ، أهله لأن يكون حراً فى اختيار مذهبه الاعتقادى بعد مقارنة وموازنة . حتى استقر على رأى (القدرية) فاتخذ طريفاً ومنهجاً لتفكيره وعقيدته .

ولا تحدثنا المصادر عن أمه ، إلا أن حياتها مع أبيه كانت مستقرة وهادئة فى الظاهر رغم خروجه عن مذهب أهل السنة والجماعة ، و- لكن الأحداث ربما أفصحت عن ضيقها وتبرمها بشذوذ زوجها ، حتى طالبه ابنه (الحارث) بطلاقها لأنها على دين وهو على دين غيره ، وكان ذلك على مرأى من الناس عند باب الطاق فى بغداد بعد أن كبر الحارث وشارف الرجولة .

فى أحضان الثراء وحرية الفكر ، وبين ربوع البصرة مجتمع العلماء ، وميدان السباق الذى تنافسها فى حلته مدينة الكوفة فى مختلف العلوم والفنون نشأ الحارث بن أسد ناعماً بال ، هادئ النفس ، حراً

في حركته العقلية يوجهها كيف يشاء دون حرج ولا إكراه برأى معين ،
ولا بحلقة من حلقات العلم التي كانت تموج بها الكوفة آنذاك .

ولعل الحرية الفكرية التي أظلت بيت المحاسبي مع هدوء العيش
كانت سبباً في توليد طاقة عظمى من الذكاء عند المحاسبي ، تواكبها
جذوة لامعة من التطلع إلى الحق ، وإلى الإسهام في القضاء على الأزمة
الفكرية والسلوكية التي حاقت بالناس في عصره ، وقبل كل شيء
إلى إشباع (غريزة) العقل بما يرضى عنه شاب كالخارث الذكي
اللاح المتطلع البعيد الغور .

شخصيته وأزمته النفسية :

كثيراً ما نرى علماء العصر الحديث يصطنعون - كما يقول المحاسبي
في كتابه « الوصايا » الاتباع ، ويعادون معارضيهم ، وينفقون من
دينهم لجذب أنظار الناس إليهم ، والظفر بالجاه والمال في الدنيا ، ثم
يزيدون على ما فطن إليه المحاسبي من ذرائع الضلال التي تفرسوا بها :
أن طوفوا حول الموائد والمذاهب ، فأنسوا إلى أحفلها بالملذات ،
والمعها ضوئاً ، فاقتربوا منها ، وفرضوا أنفسهم عليها ، واستعذبوا
كل الذل في سبيل إرضاء أصحابها ، واستخلموا كل الذكاء في الدعوة
إلى ما يذهبون إليه من آراء فجأة لعلهم بذلك يصبحون حديث الناس
على طريق الشهرة .

فلئن كان هناك كثير من هؤلاء فلا عجب أن اشتهروا بأموال
أعداء الإسلام ، ووسائل إعلامهم ، أما أن يشتهر رجل هارب منذ

شبابه إلى شيخوخته من كل ما فيه مظنة الشهرة ، هاجر مجالسها ولباسها وكل ما يؤدى إليها من الأعمال والخواطر فهذا هو موطن الفخر والعجب العجيب .

فبعد أن هجر الحارث أباه لأنه قدرى المذهب ، وطالبه بطلاق أمه لأنه كان يرى كفر القدرية — اشتدت به الفاقة ، ومسه الجوع وبذاذة اللباس ، حتى لقد كان يصاب بالاعياء الذى يكاد يقعه عن الحركة من أثر الجوع كما تحدث بذلك عنه تلميذه الجنيد بن محمد البغدادى . هذا الرجل على بساطته هذه ، وصفه الإمام أحمد بن حنبل بأنه « كالأسد المرابط » . وغشى عليه بعد سماعه يتكلم بين تلاميذه من حيث لا يراه ، وقال : « ما رأيت فى الحقائق مثل هذا الرجل ، وما رأيت مثل تلاميذه معه » .

لقد عاش بين مغريات عصره ، بل ومغريات بيته غريباً ، لا تستهويه نزوة ، ولا تقهره شهوة ولا يتجاوب فى أرجاء قلبه شيء غير الحق والعدل مع نفسه ومع غيره ، والبحث عنه بين مناهج العلم وقواعد السلوك . فهو غنى الباطن ، متين الذات ، ليس بمحتاج إلى ما يحتاج إليه فارغ الباطن المهتز الذات من وسائل التكميل الصناعية لشخصية ممزقة . بل هو سعيد بالفقر ، شديد الحبور بالجوع ، عظيم الثقة بالله ، ناعم البال فى ظلال الرضا ، متين الشخصية بما يتألق فى قلبه من عمق البصيرة وحدتها .

لم يرض المحاسبي فى شبابه عن مناهج التعليم التقليدية التى كانت

سائدة في عصره ، وبدأ يزنها بميزان الحق ليدرك مدى صلاحيتها ، دون أن يمضي فيما مضى فيه الناس وهو مغمض البصيرة والبصر ، وكانت أولى دراساته لمناهج التعليم في عصره مقرونة بحالة من الانطواء والضيق والحيرة . تشبه أن تكون أزمة نفسية ، أو مخاضاً جديداً لشخصية جديدة لا تمارس شيئاً ، ولا تسلم بمقولة ولا معقولة إلا بعد الفحص والتدقيق ، وقد سجل ظواهر أزمتها هذه في أول كتابه «الوصايا»

كان هدفه الوصول إلى طريق النجاة ، وإلى رضوان الله ، فلم يجد ذلك الأمل العظيم في أى حلقة من حلقات العلم يسودها الجدل والخلاف ، ثم انتهى به المطاف إلى من سماهم «الأخفياء الأتقياء» السائرون على قدم النبوة . وهنا يشرق الأمل في نفس الرجل ، ويضيء قلبه باليقين . ولكنه لا يهجر علوم عصره إلا حين يعتبرها غايات ، وإنما هي عنده وسائل للوصول إلى الغاية ، وهي النجاة ورضوان الله .

من هنا كان صريحاً مع النفس الإنسانية في كشف ضلالاتها حينما تزين لصاحبها الباطل على صورة الصواب ، وحينما تسول له أن يجعل الوسيلة غاية ، والغاية وسيلة ، فيطلب الدنيا بعمل الآخرة ، وحينما يتناقض ذاته ويتناقض غيره ويراثيهم في جميع الأعمال ، فيفسد بنفاق النفس وريائها العمل ، إلى آخر ما تعرض له المحاسبي من قضايا النفس البشرية في كتبه كلها ، ولا سيما في كتاب التوبة الذي تقدمه الآن للقراء .

المحاسبي والعلماء وأهل الأهواء :

أجمع العلماء على أن المحاسبي كان مناهضاً شديداً لوطاة أهل الأهواء ، نظراً لما منحه الله تعالى من قوة العارضة ، ورجاحة العقل ، والقدرة على النقاش ، وسعة العلم .

قال ابن النديم في الفهرست : « المحاسبي من الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد ، وكان فقيهاً متكلماً مقدماً ، كتب الحديث ، وعرف مذاهب النساك » .

وقال السبكي في طبقات الشافعية : « كان إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام ، وكتبه في هذه العلوم أصول لمن يصنف فيها » .

وقال السمعاني في الأنساب : « . . له كتب كثيرة في الزهد ، وفي أصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة » . وقال عنه القشيري : « عديم النظير في زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالاً » .

ولقد هاجم المحاسبي كل من خرج عن أهل السنة والجماعة هجوماً ضارباً ، كالمعتزلة ، والجهمية ، والمرجئة ، والقدرية ، وغيرهم . فهو يقول في كتاب الرعاية : « وقد يرى المغتر أن الخطرة داعية إلى طاعة وهي معصية وإلى القدر يتنزيه الله عز وجل ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد . . وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تزيين القلوب من غير عبادات بالآمال كالقدر ، ورأى جهنم ، والرفض ، والاعتزال وغيره » .

ويقول في لهجة شديدة الحدة : « ومن العباد قوم ضلال قد جمعوا إلى الضلال الكبير ، لا يرون أن أحداً يقول الحق على الله عز وجل غيرهم ، وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم ، وهم الذين يقولون : أن القرآن مخاوق ، والذين يقولون بالوقوف ، والذين يقولون باللفظ ، والذين يكذبون بالقدر ، والذين ينكرون أن الله عز وجل يرى في الآخرة ، فكل هذه الفرق آفة جائرة عن الطريق » .

هذا هو موقفه من المعتزلة ، وهو موقف الإمام أحمد بن حنبل منهم ولا سيما فيما يتصل بخلق القرآن ، فلماذا هاجمه الإمام أحمد ، وحذر الناس من مجالسته إذن ؟ ؟ ! ! وبالتالي : لماذا لم يقع تحت طائلة التعذيب والاضطهاد كما وقع الإمام أحمد ، وكلاهما مهاجم للاعتزال الذي كان مسيطراً على الحكم زمن المعتصم ؟ ؟ ! ! وكيف ينسب إلى الإمام أحمد - وهو قرة الورك - أن يقول عن المحاسبي كما يروي ابن الجوزي في تليس إبليس : « حذروا عن حارث أشد التحذير ، فالحارث أصل البلية ، جالسه فلان وفلان فأخرجهم إلى رأى جهنم » . كيف يقال ذلك عن المحاسبي وهو الذي يهاجم الجهمية في كتاب الرعاية والوصايا كما نقلنا عنه آنفاً ؟ ؟ ! ! !

والحق أن قضية المحاسبي وابن حنبل يشوبها كثير من القتام واللبس . ويكفيها حجة على الشك في كل ما نسب إلى الإمام أحمد في هذا الصدد ما نقله الذهبي في الجزء الخامس عشر من كتابه تاريخ الإسلام ، الذي لم يطبع بعد ، أن الإمام أحمد قال : « حذروا عن حارث ، لا توبة لحارث ، يشهدون عليه بالشئ ويحمد » فابن حنبل

الذى يتوقف فى الفتوى وإبداء الرأى لمجرد شبهة بسيطة فى سند الخبر ،
ويتوقف فى جرح الراوى إذا كان منردداً بين العدالة والتجريح ،
يغلق بيده باب التوبة عن مسلم بينما أبقاه الله مفتوحاً حتى تبلغ الروح
الحلقوم ؟ ؟ ؟ هذا مالا يمكن أن يصدقه العقل ، ولا تشهد بصحته
الوقائع . أضف إلى ذلك أن الذهبي نفسه حينما روى قصة سماع الإمام
أحمد لكلام المحاسبي فى منزل إسماعيل السراج دون أن يراه الحارث ،
وثناء الإمام أحمد عليه ، قال بعدها : وهذه القصة صحيحة السند ،
ولكنها ثقيلة لا تقع على قلبى .

من هنا ندرك تحامل المتأخرين ، وندرك مدى الاستجابة لهذا
التحامل فى نسبة أقوال إلى الإمام أحمد بن حنبل بعيدة كل البعد عن
طريقته ومنهجه وتحفظه الشديد بالنسبة لإصدار الأحكام فى شئون
الدنيا فضلاً عن أحكام الآخرة .

وكل ما يمكن أن يصدق فى الخلاف بين المحاسبي وابن حنبل :
أن المحاسبي قد نشط فى الرد على المعتزلة وغيرهم على طريقة المتكلمين
يقارعهم حجة بحجة ، ودليلاً بدليل ، فأذكر عليه ابن حنبل ، فقال
الحارث : الرد على البدعة فرض . قال أحمد : ولكنك حكيت شبهتهم
أولاً ، ثم أجبت عنها ، فلم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه
ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه .

هو إذن خلاف فى منهج المقاومة لبدعة الاعتزال التى كانت قد
أنهت مغالبا فى جهاز الحكم زمن المأمون بتأييد قاضى القضاة أحمد

ابن أبي دواد ، حتى وصل الأمر إلى المحنة الكبرى زمن المعتصم ،
رغم أن وقائع التاريخ تشهد بأن المعتصم لم يكن راغباً في هذه المحنة ،
ولأنما كان مدفوعاً إليها دفعاً .

لماذا إذن نجا المحاسبي من محنة القول بخلق القرآن وهو العلم
المشار إليه في بغداد ؟ وهو كذلك عدو المعتزلة اللدود ، المهاجم
للقائلين بخلق القرآن ؟

ونقول : أن فتنة الاعتزال التي ثارت منذ عام ٢١١ هـ زمن المأمون
حتى عام ٢٣٢ هـ زمن المتوكل لم تجترأ في تيارها كل معارض للقول
بخلق القرآن ، ولا كل كاره للاعتزال ، وإنما كانت تستهدف الحصول
على مبدأ شرعي يعترف فيه المتخصصون في السنة والفقه بهذه البدعة ،
حتى ينطلق منها زعماءها إلى القول بجواز التعديل والتطوير في الشريعة ،
من حيث إن أصلها الأول مخلوق لا يتمتع بالقدسية والحصانة من التبديل
والتغيير ، شأنه شأن كل النعم المخلوقة لمنفعة الإنسان في الأرض ، ولم
يكن المحاسبي من المتخصصين في الفقه والسنة ، وإنما كان من الزهاد
المتكلمين الفقهاء أهل الحديث ونقد المجتمع ، شأنه شأن غيره من
أمثال بشر الحافي والجنيد البغدادي وغيرهما من رجال التصوف .

ولكن الحملة اشتدت على المحاسبي من الحنابلة نظراً لأنه كان
شديد الوطأة على العلماء جميعاً في عصره . فهو يقول : « يغترون بكثرة
الرواية ، وحسن الحفظ ، مع تضييع واجب حق الله ، وتخيل نفس
أحدهم إليه أن مثله لا يعذب لأنه من العلماء . . فهذه الفرقة الفاجرة

من حفظ العلم وأكثر روايته . إلى كثير جداً من أمثال هذا المهجوم تجده في كتاب الرعاية ، والوصايا ، والعلم . . اشتد الخنابلة عليه في عهد المتوكل لأنه اصطنع علم الكلام كالمعتزلة ، وشغب عليه غير الإمام أحمد منهم ، ونسبوه للإمام ، وكاد هذا المهجوم أن يودى بالحاسبي لولا أنه اعتزل التدريس ولزم بيته بقية عمره .

ولقد برع الحاسبي في نقد فئات المجتمع من العلماء والقراء والنسك والصوفية والزهاد والتجار والجنود وطلاب العلم براءة منقطعة النظير ، كان من نتائجها تراث هائل من علم النفس الإسلامي الذي مازال ينتظر الكشف والبحث من العلماء . كما أنه برع في استقصاء علل النفوس ، وشمول النظر وعمقه حتى ليعد في السابقين إلى علم النفس التحليلي في العالم كله ، مما يقطع بأنه كان ذاقدراً للصوفية ، ولم يكن صوفياً مطموس البصيرة كمحاطب الليل .

ومات الحاسبي عام ٢٤٣ هـ بعد حياة حافلة بالجهاد والبحث والنظر راضياً بالفقر وهو يجد الثراء في تركة أبيه التي تنازل عنها لعدم ثقته في حلها ، رحمه الله رحمة واسعة .

• • •

مؤلفات المحاسبى

أولا - المخطوطات :

- ١ - آداب النفوس . وهو فى مكتبة جاز الله بالأستانة برقم ١١٠١ ، ومن هذه النسخة نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٦٤ تصوف . وفى كوبريللى بالأستانة برقم ٧٢٥ . وفى جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٤٨ عن نسخة ولى الدين .
- ٢ - أحكام التوبة . فى دار الكتب المصرية ٣١٩ تصوف عن مكتبة لندن .
- ٣ - رسالة التصوف . بلدية الإسكندرية رقم ١٣٢١ - ١ ج .
- ٣ - التنبيه على أعمال القلوب والجوارح . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن نسخة جاز الله بالأستانة .
- ٤ - الخصال العشرة التى جربها أهل المحاسبة . دار الكتب المصرية رقم ٤١٨٤ تصوف عن نسخة مكتبة برلين .
- ٥ - الرد على بعض العلماء من الأغنياء حيث احتجوا بأغنياء الصحابة . لالى بالأستانة رقم ٣٦٠٦ - ٢٠
- ٦ - شرح المعرفة وبذل النصيحة . كوبريللى بالأستانة رقم ١٦٠١ .

- شهيد على رقم ١٣٤٥ والأزهرية بمصر رقم ٤١٣٠٩ ، ١٢٠٨ تصوف .
ودار الكتب المصرية ٤٠٨٤ تصوف عن برلين .
- ٧ - فصل من كتاب العظمة . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ تصوف
عن جار الله بالأستانة .
- ٨ - القصد والرجوع إلى الله . جار الله بالأستانة ١٧٢٨ ،
شهيد على ٣٣١٩ .
- ٩ - محاسبة النفوس . برلين ٢٨١٤ ، المتحف البريطاني
بلندن ١٢٤٤ .
- ١٠ - مختصر المعاني . البنغال ١١٦٧ .
- ١١ - المراقبة والمحاسبة . مكتبة سوهاج ١٣٦ تصوف .
- ١٢ - معاتبة النفوس . الأزهرية بمصر ١٠٣٩ مجاميع تصوف .
- ١٣ - النصيحة للطالين . شهيد على ٣٣١٩ .
- ١٤ - فهم الصلاة . دار الكتب المصرية ٤٠٦٤ عن جار الله .

ثانياً - المخطوطات المفقودة :

- ١ - رسالة في الأخلاق .
- ٢ - أخلاق الحكيم . ذكره في أعمال القلوب والجوارح ص ١٥٧
- ٣ - التفكير والاعتبار . ذكره ابن النديم في الفهرست ص ٢٦١
- ٤ - كتاب الدماء . ذكره ابن حجر في التهذيب ٢ - ١٣٥ .

- ٥ - كتاب الغيبة . فى فهرست ابن خير ص ٢٧٢ .
٦ - فهم السنن . ذكره الزركشى فى البرهان ١ - ٢٣٧ .

ثالثاً - المطبوعات .

- ١ - بدء من أناب إلى الله . نشره المستشرق ريتز سنة ١٩٣٥ م .
٢ - التوهم . نشره المستشرق آربرى بالقاهرة فى لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ .
٣ - الرعاية لحقوق الله . نشرته المستشرقة مرجريت سميث فى لندن سنة ١٩٤٠ . وأعيد طبعه بالقاهرة عام ١٩٦٦ ثم طبع ثالثاً بتحقيق عبد القادر أحمد عطا بالقاهرة عام ١٩٧٠ .
٤ - الخلوة والتنقل فى العبادة ودرجات العابدين . نشره الأب أغناطيوس عبده خليفة بمجلة المشرق عام ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ .
٥ - رسالة المسترشدين . حققه عبد الفتاح أبو غدة ، ونشرته مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب سنة ١٩٦٤ .
٦ - الوصايا . نشر بالقاهرة عام ١٩٦٥ بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .
٧ - المسائل فى أعمال القلوب والجوارح . وهو مكون من :
المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ، والمسائل فى الزهد وغيره ، وكتاب المكاسب ، وكتاب العقل . حققه عبد القادر أحمد عطا ونشره عام ١٩٦٩ .
٨ - فهم القرآن . حققه حسن القوتلى ونشره عام ١٩٦٨ م .
٩ - كتاب العلم . حققه محمد العابد مزالى ونشر فى تونس عام ١٩٧٥ م .

• • •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عونك اللهم

* * *

بداية العودة إلى الله

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي :

قلت : ما بدء من أناب إلى الله عز وجل ؟

قال : ابتداء من أقبل على ربه ، وعمل لطلب مرضاته : معرفة الله عز وجل ، وما أوعده ، مما وعده وتوعد ، ومعرفته بنفسه ، كيف سوء رغبته ، وضعفها في طلب نجاتها في آخرتها ، فأدبها بأدب الله ، فاستقامت إلى محبة الله عز وجل .

معرفة الله :

قلت : وكيف كان بدء ذلك كله ، حتى أدبها بأدب مولاه ؟

قال : إن أول ذلك : أن الله سبحانه وتعالى أخطر بقلب عبده العارف ذكره ، وذكر آخرته ، وحركه للفكر والتذكر لعظيم قدر

مولاه ، وقدر رضاه ومخطه ، وما وعد وتوعد ، واستنار بذلك قلبه (١) .

خلاق النفس الأمارة بالسوء :

ثم نبه لمعرفة نفسه . وأول ذلك : أن نبه لتذكر ما ساف . من جنابة نفسه عليه ، من كثرة الذنوب التي كتبت عليه في صحيفته ، والتي لا يحصى ما فيها عنه حتى يوقفه عليه ربه ، ويسأله عن جميع ما جنت عليه نفسه ، مما كتبه وأثبتته عليه ، فيقر بأعظم الحياء ، وأشد الخطر ، وأعظم الخوف والوجل .

ومن ذلك ، فإنه لا يأمن أن يبدو له عند قراءة ما في صحيفته من الله الغضب ، فيجر ويسحب من بين يدي الله إلى عذاب الأبد .

ثم ذكره : أن نفسه كانت في جميع ما جنت عليه من سالف عمره تأتية بسرور ونشاط ، لم تزل مختلفة (٢) راغبة ، متيقظة فطنة ، متلحظة إلى ما يهلكها في آخرتها ، مسرورة متنعمة بما يسخط مولاه ، كأن الله لا يميها ولا يفيها ، وعن سوء حالها لا يسألها ، وكأنه لم يجرها ، ولم يتوعداها .

(١) إنما يستنير القلب بهذا التذكر إذا استمر عليه الإنسان وأدمنه ، حتى صار شغله الشاغل ، وبذلك تزول الحجب عن القلب ، ويسود إلى أصله الذي فطره الله عليه . انظر (القصد إلى الله ورقة ١٢ أ ، ب وآداب النفوس باب معرفة النفس ورقة ١٠ أ ، ب) . وفيها يذكر المحاسبي أن إيمان التذكر للموت والآخرة ينير القلب ويحليه تماماً من الوسوسة .

(٢) مختلفة : مترددة بين الشهوات .

بل كأنه ازدجرها وتوعدّها ، ولا يقدر على عذابها بما توعدّها به ،
أو كأنها ممتنعة منه ، ولها ناصر ينصرها .

وكانت - مع سرورها ونشاطها في جميع ما يكره ربّها - معرضة
عن (سبيل) نجاتها في آخرتها ، مستثقلة لأقل القليل مما يرضى عنها
ربّها ، نافرة ناشزة كارهة (١) مبغضة للتعرض لأسباب عزها عند مولاهما .
فإن عملت بالقليل من طاعة مولاهما فجبورة مكرهة ، بعد جذب
منه لها ومجاهدة .

فإن طال المكث في طاعة مما يقربها إلى ربّها ، نازعته إلى تركها (٢).
وثلثت عليه ما هو فيه (من عمل الآخرة) . وذكرته طيب راحة
بدنه في ترك تعب الطاعة . وخوفته فوت بعض حوائجه .

وإن أراد بذل القليل من ملكه لآخرته ، ألزمته الاغتمام بنقصان
ذلك من ماله ، وخوفته الفقر إن دام على خراج مثل ذلك .

فإن أبي إلا أن يقدمه لآخرته دعتّه إلى النقصان منه (٣) .

فإن أبي إلا لإخراجه بغير نقصان ، اغتمت لذلك ، ولم تزل
تفزعه بعد لإخراجه بذكر نقصان ماله ، لئلا يعود إلى إخراج مثله ،
وتستعظم ذلك إذا أبي إلا لإخراجه .

• • •

(١) ناشزة : نافرة عاصية .

(٢) في الأصل : إلى تركه .

(٣) وبالتالي أنسته وعد الله تعالى بمضاعفة الصدقة في الدنيا والآخرة .

العزم على تأديب النفس

فلما تبين له ذلك ، وعرف أن في طاعتها عطبه في يوم معاده ، وأن في عصيانها نجاته في آخرته (١) ، وأنها قد اعتادت سلوك (طريق) هلكته ، وألفت طول النفور والاشمئزاز مما يرضى عنده سيده ، وأنه إن هجم عليه (٢) الموت — ولا أمان له من سرعة هجومه — لقي الله تعالى على ما يسخطه ، وإن بغته الموت على حالته (هذه) كان فيها عطبه وهلاكه ، لا أن يعفو عنه ربه ، وأنه لا محيص (٣) له عن الموت ، ولا معدل (٤) له عن لقاء ربه ، وأنه لا رجعة له إلى الدنيا بعد ندمه ، وبعد لقاء خالقه ، وأن تغرير (النفس بإياه) بضعف بدنه خطأ عظيم . وحق بين ، وهلاك وعطب .

الوعظ والتذكير :

فألزم قلبه العزم على تأديبها ، والمواظبة على توقيفها ، والإلحاح على معاتبها ، والدوام على موعظتها ، وتذكيرها ربها ، وترداد ذكر عظيم خطرها ، وأنها لا بد لها من المصير إلى مولاها . فلم تمكنه من معاتبها ، وأعرضت عما يقرعها به ويذكرها .

(١) في الأصل : في آخرتها .

(٢) في الأصل : هجم عنده .

(٣) لا محيص : لا مخرج .

(٤) لا معدل : لا مفر .

عزل النفس عن مواطن المعصية :

فكان أول ما بدأها به من الأدب لتفهم وتعقل ما ألقى إليها :
أن ألزمها الصمت ، وحال بينها وبين من يشغلها بحديثه .
فلما لم تجد من تحدثه صمتت ، فلما طال (بها) الصمت سكنت (١).
فلما طال السكوت تبين لها كثير مما كانت تخوض فيه من الخطأ
والزلل ، وانكسرت لما علمت أنها كانت خائضة في الباطل ، متعرضة
لسخط مولاها .

إدمان معاتبتها وتخويفها :

ثم ابتدأ في معاتبتها . وتقريرها بالسوء الذي صنعت ، وبما هي
إليه صائرة عن قليل .
فلم يزل يلح عليها ، حتى لانت ، واعترفت بذنوبها ، وأقرت
بسوء صنعها ، ودوام غفلتها عن نجاتها .
فلما اعترفت بذلك ، ذكرها عظيم جرائمها ، وكثرة ذنوبها ،
وأدام ذلك عليها ، وجعله عمله ، لا عمل له غيره (٢) .

(١) الفرق بين السكوت والصمت : أن الصمت سكوت اللسان ، وشغل النفس
بالكلام . والسكوت : سكوت اللسان والنفس جميعاً .

(٢) مذهب المحاسبي : أن المكوف على تطهير النفس من الذنوب أفضل من عمل
النوافل وهي مقبلة على عمل الشر ، وأن عمل الخير إذا خالطه الشر انقلب إلى شر وإنما
ترفض النفس ذلك لثقل التطهير عليها .
انظر (آداب النفوس : باب الإرادة) .

فأوجع ذلك ضميرها ، فسالت دمعها ، واستغفرت الله من سوء ما تقدم من صنيعها .

فحمل عليها ، وذكرها : أن المقام على ما عرفت ، وبه أقرت ، يعرضها (١) لأن يحل بها سخط مولاها .

ثم أخبرها : أنه لا أمان عندها أن يكون (ربها) قد غضب عليها لما أسلفت من معاصيها ، فكيف نقيم عليها بعد ذلك ؟ فأذعنت ، وسخت بالعزم على ترك المعادة لذنوبها .

النفس تأتي مفارقة الشهوات :

فطهر قلبه من الإصرار (٢) ، وأشرق واستنار ، وعاود النظر ، وردد الفكر ، وألح بالفكر في الأسباب التي كانت (النفس) تنال بها معاصيها ، من الأصحاب ، ومن الأهل ، ومن القرابة ، والخلطاء الذين كانوا يعاونونها على الشهوات . فدعاها إلى قطع جميع ذلك ومباينته (٣) ، وأخبرها أنها لا تصح توبتها ، ولا تتوب إلى خالقها ، إلا بهجران ذلك كله .

فنفرت ، ونشزت ، والتوت عليه ، وأبت .

(١) في الأصل : يعرض .

(٢) الإصرار : عقد القلب على شهوة الذنب حتى ولو أقبل عنه الإنسان .

(٣) مباينته : مباحثته .

علاجها بالصوم والجوع والتذكير :

فكسرها بإدمان الصيام ، فانكسرت قوى طبعها (التي نالتها) من الاغتذاء بالطعام الذي كانت تألفه بالدم ، فانكسرت عن نشاطها ، وهى مع ذلك مولية عنه (١) .

فلما رأى أن ذلك لم يبالغ فى تأديبها ، أمسها الجوع (٢) . فلما ألح عليها الجوع ذلت وخشعت ، فأمكننت من المعاتبة ، فحمل عليها فلم تقبل ، فذكرها عذاب الله ، وسوء المصير لمن أعرض عنه ، وتعرض لمقته .

فلانت له قليلا ، وسوفته ، ووعدته الترك لذلك عن قليل ، لتتقضى بعض حوائجها ، وتدارى بعض من تحبه .

فحمل عليها بالوعيد كما يحمل البطل على قرنه (٣) ، وألح بالزجر والتذكير ، وعظم عندها الرب عز وجل ، وكرر عليها شدة نقمته ، وعظيم عقوبته .

(١) يعنى بالحنين إلى الشهوات وعدم الإقبال على الطاعة .

(٢) يقصد المحاسبي بالجوع : التقلل من الطعام مع الصيام ، ولا يقصد الجوع من غير صوم ، فهو يرى أن كل عمل نافلة ليس له أصل فى الكتاب والسنة فهو بدعة ، كالصدقة أصلها الزكاة ، وصوم النافلة أصله فرض رمضان ولم يفرض الله الجوع على العباد .

انظر (آداب النفوس . باب العدل والفضل . وأعمال القلوب والجوارح : ٢٢٥ والعرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية للبكرى . . ورقة ٢٥) .
(٣) القرن : المجاوز من الأعداء .

الحنين إلى بعض الشهوات دون بعض :

فأذعنت ، وطاوعت إلى إجابته إلى قطع تلك الأسباب ، وأبت أن تقطع باقى أسباب معاصيها .

فأمسك عنها وهو مغموم بعصيانها ، فنوى أنها متى أرادت أن تتعرض للأسباب التى أبت أن تقطعها : أن يحجزها عنها .

فلما قطعت بعض أسبابها واستبدلت بها أضدادها : من صاحب مرشد بدلا من صاحب المغوى ، ومن تيقظ وتذكر بعد سهو وغفلة ، ومن تثبت وفكرة بعد طيش وعجلة ، والإدمان على مناجاة الرب جل ذكره ، بحلاوة تلاوة كتابه ، والنظر فى العلم من آثار نبيه صلى الله عليه وسلم ، وآداب الصالحين بعده - بعد كثرة الخوض والاستراحة إلى محادثة المفسدين .

واستبدل بعد كثرة الكلام صمتاً ، وبكثرة اللحظ إلى مالا يحبه مولاه غضباً ، وبادر إلى ترك الكثير من شهواته التى تباعده من ربه ، وتوقى كثيراً مما خبث من مكاسبه ، وما لا يطيب من غذائه .

فلما بلغ هذا ، اجتمعت أنوار ذلك فى قلبه (١) واستنارت مواريث الطاعة فى عقله ، وأيده الله تعالى بمعونته ، وهو الذى ابتداء تنبيهه ، وحرك قلبه للنظر إلى نفسه ، وعرفه سوء رغبته ، وقلة مبالاة بها بآخرتها .

(١) الأنوار الناشئة عن ترك المعاصى هى المعبر عنها فى السنة النبوية بحلاوة الإيمان ، أو حلالة العبادة .

فلما استقر في قلبه ما وهبه الله سبحانه من نور طاعته ، والسرور بما هم به ، حيي قلبه ، وقوى عزمه ، وقهرت أنوار الطاعة هواه .

عقوبات مشروعة للنفس :

والنفس بعد ذلك يعرض لها بعض ما ألفتها ، مما كانت تلتذ به . فنه ما تركه طوعاً ، ومنه ما تنازعه إلى معاودته .

فكل ما تركته طوعاً حمد الله الذي من بذلك عليه . وما نازعت إليه حمل عليها ، وقاتل هواه ، كمحاربته قرنه من أعدائه . فإذا تركته كرها حمد الله عليه ، وغمه قلة سخائها بتركه ، وكان حذراً منها أن تعاوده . وما أبت إلا مواقعتها زجرها . فإن انزجرت وإلا توعداها بعقوبة : أن يأخذ منها من الراحة ، وينزل بها من التعب ، والنقصان من المال ، والترك من اللذة من المباح أكثر من لذتها التي تريد أن تواقعها .

فإن انتهت بالتوعد (بذلك) حمد الله . وإن أبت إلا مواقعتها ورجت ألا يعاقبها ، وغلبته ، وغفل عنها ، وعجز عن مجاهدتها ، فرجعت إلى بعض ما يكره مولاه - بصرها سوء فعلها ، وخوفها أن يكون مولاه قد سخط عليها ، وأنزل بها العقوبة التي وعد أن يعاقبها بها . فإن لم تقلع (١) أتعبها بكثرة الصلاة ، وأجاعها وأعطشها بصيام أو منعها كثيراً من شهوات الحلال التي لا تكاد أن تصبر عنها ، أو إخراج مال يتصدق به من ملكه .

(١) في الأصل : فلم تقلع .

بداية الهداية

فنظرت إلى لذة المعصية التي نالتها قد ذهبت ، وإلى العقوبة بها
قد حلت ، وزادته العقوبة نوراً في قلبه (١) ، ونشاطاً إلى التقرب إلى ربه .
فانكسرت ، وقوى عليها ، وزجرها فانزجرت ، ووعظها
فاتعظت ، لأنها مؤمنة وإن عصت ربها .
وذكرها ما أنزل بها من العقوبة ، فعرفت أنه سيعاود ما عاقبها به .
إن هي عادت ، فتركت ذلك ، وانصرفت عنه .
فما زال بها في كل ما تأباه ، يؤدبها بمثل ذلك ، حتى قطعت كل
سبب كان يباعدها من ربها عز وجل .

بين عقوبتها والتخفيف عنها :

فلما تركت عاداتها ، واستقامت على طاعة ربها ، ترك شدة العقوبة
لها ، كراهية الملل والنور ، ثم لم يأمن منها أن تعود إلى بعض
ما رفضت ، مما يكره مولاها عز وجل .

(١) يعني بذلك نور الطاعة التي عاقب بها نفسه ، أو نور التقليل من المباح حيث
تتسع مداركه المعنوية تبعاً لذلك .

فخفف عنها (تناول) بعض ما يقوى طبعها الذى يهيج منه هواها ،
فمنعها من بعض لذتها : من كثرة الطعام الذى ألفتة ، من اللحم وغيره ،
وشدة البطنة والامتلاء ، وتعاهدها بالصوم إن قوى عليه .

لأنه لما رأى شهواتها تنازعه من قبل طبعها ، أراد أن يكسر قوى
شهواتها ، ليخلو قلبه ، فينظر إلى أعاجيب آخرته ، ووعد ربه ووعيده ،
ويتيسر ويصفو ذكر ربه فى قلبه (١) .

النفس تسلم قيادها :

فرفع لها بالفكر والتوهم أعلام الآخرة ، فشاهد بها أهوالها
وشدائدها .

وأراها بالتوهم النار والجنة من ورائها ، وأنها لا تصل إلى الجنة
إلا بعد النجاة من عذابها .

فأبصرت مالا صبر لها عليه ، فسخت بترك ما يحب طبعها خرقاً
أن يورثها الركون إلى ذلك مالا صبر لها عليه .

(١) كتب المحاسبى رسالة فى أمور الآخرة سماها « التوهم » وتحدث عن مادة الفكرة
فى كثير من كتبه فى « آداب النفوس » قال : « والزم يا أخى قلبك الفكرة فى أمر
المعاد ، فلا يفارق قلبك ، وتوهم بقلبك دول المطلع عند مفارقة الدنيا ، وترك ما قد
يذل أهلها فيه مهج نفوسهم ، وتدئس أعراضهم ، وأخلاق مروءتهم ، ثم تركوا ذلك
كله ، وقدسوا على انفرادى وآحاداً . . . فإنك إن شغلت قلبك بذلك ، وكان فيك
شئ من صحة تركيب العقل فإنه لا يمدك الخوف اللازم المحيط بقلبك . . . » انظر (آداب
النفوس . باب معرفة النفس) .

فكان مثله في ذلك كالذى وقع الداء في رجله ، فاسودت وتأكلت
فخشى إن لم يقطعها أن يدب (الداء) منها إلى جميع بدنه ، فبذل بعض
ما له لمن يقطعها بشهوة وسرور لقطعها ، بعد ما كان يعز عليه أن تنقطع
شظية من ظفر من أظفارها ، ولكن لما رأى السبب الذى لا يأمن أن
يؤديه إلى عطب بدنه ، سحت بذلك نفسه ، خوفاً مما هو أعظم منه .
فكذلك هذا الذى نظر إلى آخرته ، ورأى أسباب هلاكه فيها
في قلبه وجوارحه ، ففارق ذلك بسخاء نفس ومحبة ، ولو كان لا يقدر
عليه إلا ببذله ما يملك لفعل ، كما بذل ما يملك لمن قطع رجله وحسمها
بالنار ، فاحتمل حرقة ذلك لخوف العاقبة ، وكذلك يحتمل المؤدب
لنفسه الحرات مخافة سوء عاقبة الأبد .

وشتان ما بين العاقبتين ، وشتان بين ما يرث القاطع لرجله من
الراحة ، وبين ما يرثه الخائف من الله تعالى من الراحة في جواره .

• • •

خداع النفس

الحنين إلى الشرف بين الناس :

فألزم قلبه الخذر ، فلما سكنت نفسه عن منازعتها ، وجانبته
إلفها ، واستحلت طاعة ربها ، نازع طبعها إلى حب العز والشرف ،
وحسن الثناء ، والتبجيل على ما ظهر من طاعتها ، وما تركت من
معاصيها .

فزجرها ، وخوفها نظر الله إلى ضميرها بالمقت إن أضمرت
التقرب بعبادته إلى غيره ، فانزجرت ، لأنه رياء ، والرياء شرك .

العجب :

ثم رجعت للتروح بالمن عليه : أنها أطاعت ربها وحده ، وأخلصت
عبادتها .

فزجرها ، وقررها بما تقدم منه من مجاهدته إياها ، وأنها أبت
طاعة ربها ، ونازعت إلى حب الشرف عند العباد بطاعتها . بعد تركها
معاصي ربها ، وأن المنة للذي أيقظه لأدبها ، ومن عليه بأن صرفها عن
محبوباتها ، فاعترفت أن ذلك كان من مولاه ، وأنها كانت له كارهة .

توهم فضلها على غيرها من الناس :

ثم رجعت عليه قائلة : إن الله تبارك وتعالى لما من بذلك عليها ،

وقلبها عن محبتها ، قد فضلها بذلك على غيرها ، ممن هو مستور الحال بين الناس .

فزجرها ، وذكرها سوء ما سلف من آثارها ، فيما بينها وبين خالقها ، وما يخاف عليها من خواتم السوء في آخر عمرها ، وأن ما يعرف من ذنوبها أكثر من ذنوب من تروحت إلى التعظم عليه ، وأنها أفضل عند الله تعالى منه .

فأذعنت . وتواضعت . لأن صاحب العيب إذا عرف بعيبه أذعن وخضع ، فخشعت وانكسرت (١) .

اعتقاداتها مصطفاة وصادقة :

ثم رجعت عليه متروحة إلى أن الله سبحانه لم يمن عليها بطاعته ويجنبها معاصيه ، ويذلها بالتواضع ، إلا وقد اصطفاها ، وجعلها من الصادقين له ، تروحاً منها إلى ذلك ، لتنال السرور بذلك في طبعها .

(١) أجمل المحاسبي المخاوف التي يجب أن يعيش فيها العبد السالك إلى الله ، وجعلها تسعة . أولاً : أن يخاف ويدعو ألا يكله الله إلى حسناته التي يتميز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً . والثانية : أن يخاف من كفران النعم التي بطر بها ولم يشكر عليها . والثالثة : خوف الاستدراج بالتمتع . والرابعة : خوف أن ترد عليه أعماله . والخامسة : خوف الذنوب التي عملها . والسادسة : خوف تبعات الناس عنده . والسابعة : خوف ما يحدث له في بقية عمره . والثامنة : خوف تعجيل العقوبة في الدنيا . والتاسعة : الخوف من سابق علم الله فيه وفي أي الدارين أثبت اسمه . ويرى أن في استحضار هذه المخاوف نجاة النفس من اللغو والالتواء (آداب النفوس : باب معرفة النفس) .

فزجرها ، وذكرها ما كان منها من ذنوبها ، وخوفها أن يكون
قد سقط عليه من أجلها ، وأنها لم تقم له بحق كما يحق لها ، وأنها
لا تدرى على ماذا تموت .

فأذعنت ، وخافت ، ووجلّت ، وصغرت . فلما أراها أن هذه
الأربع تعارضه في طاعته لربه : الرياء ، والعجب ، والكبر ، والعزة ،
ألزم قلبه حذرهما ، وتعاهدها باعتراضها ألا تكون مالت إلى بعضها ،
وهو غافل ناس .

• • •

دلائل الصدق في التوبة

الجد في الطاعة :

فلما تبدلت أحواله ، واستحلت (النفس) ما كانت تشمئز منه ، وأنست بما كانت منه نافرة ، وزهدت فيما كانت فيه راغبة ، وأنار منه اليقين ، فشاهد ما غاب من الآخرة بعقله ، فقوى تعظيم الله في قلبه ، واشتد خوفه منه ، ورجاؤه إياه ، فهاج منه الحياء من الله وأزعجه عن كل قاطع يقطعه من قرب ربه ، وسبب يشغله عنه وبعثه الرجاء ، ونشطه الدؤوب ، والاجتهاد ، وأهاجه الحب على مناجاة سيده ، والأنس به ، والوحشة مما سواه .

فأطال مناجاته ، وأقبل الله تعالى بعوائده ، واتصال المزيد في قلبه ، فأثار فيه ذكره ، وعظم فيه حبه ، مع شدة الشفق أن يحال بينه وبينه ، فاشتد شوقه إلى مولاه ، وطال حزنه ، ووله عن الدنيا عقله لإجلال وإعظاماً لهيبته ، مع الشفق والوجل أن يقطع عن قرير عينه .

الحزن والخوف :

وذعر وفزع ، فرة تنفضه الرعدة برجفان قلبه ، ومرة يهيج منه الانشاء بسيلان دموعه بالخرقات ، وطوراً يثور بالزفرات ، وتارة يزول عقله (١) ، بحسب الجاهل بأمره أن طيفاً من الجن قد اعترض

(١) ليس المراد من زوال العقل هنا : الجنون ، وإنما المراد الذهول ، وشدة الخشوع ، وهو سعى قواه تعالى : (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) .

له ، وقد خامرته في أكثر أحواله البهتة ، وغلبت عليه الكآبة ، فهو في
نهاره نافر مستتر ، مستوحش من الخلق (١) ، وليله ليل مضطرب .
فلو أبصرته أيها المغرور بدنياه ، المخدوع عن طريقه ، في سواد
ليله وقد هدا العباد ولم يهدأ فؤاده ، وسكن الخلق ولم يسكن خوفه ،
واستراحت الخليفة ولم يفتر حزين قلبه ، وقام بين يدي ربه بقلبه
الحزون ، وفؤاده المغموم ، منكساً رأسه ، مقشعراً جلده ، وقد ثنى
عنقه ، وحنى صلبه ، والحياء قد غلب على قلبه ، فافتتح كتاب ربه ،
مع تعظيمه لما يتلو ، إجلالاً للمتكلم به (٢) .

فما لبث أن هاجت عليه أحزانه ، واشتعلت حركات فؤاده ، وأسبل
دمعه ، وحن في بكائه خشية أن تسمعه أذن غير سميع ربه (٣) فأنفاسه
متوهجة ، وزفراته بحرق فؤاده متصلة .

فلما طال منه القيام بين يدي ربه ، اشتاق إلى التذلل له بتعفير
وجهه ، خضوعاً له ، فلو أبصرته منحطاً من انتصابه بحرقه قلبه ،
وأزيز صدره ، وتراجع أنفاسه ، فخر ساجداً على وجهه ، ذاكراً

(١) ليست الوحشة من الخلق عند المحاسبي هي العزلة عنهم ، وخلاصة مذهبه في
ذلك قوله لتلميذه الجنيد البغدادي : « لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما أنست لقرهم ،
ولو أن نصفه الآخر بعد عنى ما استوحشت لبعدهم » (حلية الأولياء ٩ - ١٨٠) .
(٢) يريد أن الثائب الصادق يتوهم أنه يسمع القرآن من ربه فيجله ويعظمه لذلك .
(٣) البكاء عند مناجاة الله تعالى مشروع في القرآن حين يقول تعالى في علامات
الصادقين : (ويخرون للأذقان يبكون) وقوله : (خروا سجداً وبكياً) .

لنظر مولاه إليه ، سائلة دموعه على خده ، حتى أثرت في وجهه ،
يضرع ويتضرع ، ويهتف ويبكي ، ويزفر وقد ملأ العظم قلبه ،
وأذهبت رهبة الله عقله (١) .

سقوط الكلفة في الطاعة :

وقد ارتفعت عنه السامة ، وزايلته الملالة ، لما في صدره من
الجلال والهيبة لربه .

وكيف يسأم وهو مستقل لعمله ، مقصر عند نفسه في حزنه ، وفي
حرق فؤاده ، اعظيم ما ألزم قلبه من تعظيم الله وخشيته ، والشوق
والحنين إليه ، وهو مجتهد ملءور ، ومع فرقه وذعره مشتاق ، ذو
حنين ، واله معلق قلبه بمولاه ، لا ينفد من قلبه ذكره ، وشدة هيئته .

وكيف تنفذ هيبة من قد أقبل عليه بالتوفيق ، وعطف عليه
بالرحمة والتنبيه ، وقد قرب من قلبه ذكر سرعة لقاء ربه ، فهو في كل
وقت يتوقع نزول الموت به ، فلم يتهن في نهاره بقرار ، ولا اطمأن
فؤاده من خشية المباغمة بالموت في كل حال وأوان .

قله أيقن أنه قائم بين يدي مولاه بلا حجاب يحجبه عنه ، ولا ستر
يواري بصره ، فكأنه يعاينه ، قد ثنى عنقه ، وحتى صلبه ، مع

(١) يرى المحاسبي : أن الشيطان لا يسكن إلا القلب الخرب . ويرى أن خراب
القلب إنما يكون إذا كان فارغاً من الحزن والخوف الدائم ، فحينئذ ينهث فيه بالوسوسة
وتعنى الدنيا ، والطمع فيها وخفاة فقرها . انظر : (آداب النفوس : باب معرفة النفس .
والقصص إلى الله ورقة ٣٨ أ ، وأعمال القلوب والجوارح : ١١٠) .

وجيف (١) كأنه من شدة شغل قلبه ليس في الدنيا ولا من أهلها .
قد ضمير نفسه للسباق غداً ، وتخفف من الدنيا لسرعة الممر على
جسر جهنم ، ذابل ناحل ، دائب راج ، نعيمه في الدوام على أحواله ،
طالب من الله تعالى أن يزيد حزنه ، ووجيفاً وحنيناً وشوقاً ، ودؤوباً
واجتهاداً .

مبادر مشمر متنعم بالطمع وحسن الظن والأمل ، ومحزون بخوف
القوت والحرمان ، وهو مع ذلك راض بقضائه ، مسلم لأمره ، واثق
لما ضمن له ووعدده ، لا يرى عزاً إلا التعزز به ، ولا شرفاً إلا في
الإقبال عليه .

العلم بطريق التوبة :

بصير بداء نفسه ، ونزع عذوه ، لا يركن إلى خطره ،
ولا تتموه عليه زينة فتنة ، قد ارتقى إلى القرب ، فإذا بصيرة من دلائل
الكتاب والسنة ، فإن ساءلته وجدته بصيراً بالطريق إلى الله سبحانه ،
وإن أجاب أجابك بالوصف عن طريق قد سلكته ، وعن آفات قد
رفضها ، وعن مكابدة قد جاهدتها ، وعن درجات في القرب من الله
سبحانه وتعالى قد ارتقى إليها (٢) .

(١) الوجيف : الخوف .

(٢) لقد نبه المحاسبي إلى عقبة اتباع السنة فيقول : « والسنة ليست بكثرة الصلاة
تدرك ولا بكثرة الصيام والصدقة ، ولا بالعقل والفهم ، وغرائب الحكمة ، ولا بالبلاغ
والموعظة ، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله والأئمة الراشدين =

فدل المريدين على ابتدائه ، وما عرض له من القواطع ، وبأى شيء قطعها ، وأنه لم يصل إلى السرور والراحة إلا بعد المكابدة والمجاهدة ، لكي يتحملوا مثل ما لقي ، حتى يفضوا إلى الغنى والراحة والسرور .

وأخبر عن طريق المؤدب لنفسه . ولم يذكر ذلك عن نفسه لئلا يظهر ما كان من طاعته لربه .

فأخبر : أن المريد لله عز وجل كان أول ابتدائه ما من الله عليه من تنبيه لمطالبة نفسه بما طالبا به حتى أجابته ، ثم كان الغالب عليه بعدما انتقادت له نفسه : شدة الوجل والخوف .

قد أشرف على الإياس ، فلا يمنعه من اعتقاده إلا أنه عليه محرم لمعرفته بوجود ربه وكرمه ، ولكن الغالب على قلبه ، خوف ألا يقبل مثله ، لعظيم جنايته وجرمه ، من غير إياس أن يتفضل عليه بوجوده وكرمه .

وإذا تلا آية رحمة وثواب قال : هذا للطاهرين غيرى .

علم الرجاء والشكر والخوف :

فلما نظر الله سبحانه إليه كذلك رحم ضعفه وقلقه ، ووجله وقلة هدوئه ، فأهاج الرجاء من قلبه ، وذكره أياديه وتفضله ، والسوء الذى

= وليس شيء أشد تهمة ولا أكثر خروجاً عن السنة من العقل والفهم دون اتباع واستسلام (آداب النفوس . باب العدل والفضل) .

نقله منه ، وما بدله بعد إساءته ، وما عوضه من الإحسان والإقبال .

فأحسن ظنه ، ورجا أن يكون لم يمن عليه بذلك إلا لسابقة سبقت له منه بالرحمة قبل أن يخلقه ، فغلب الأمل على قلبه أن الله تعالى سيعفو عنه إذ من عليه بما من ، فأنس بالرجاء ، وعظم الشكر في قلبه ، وخاف أن يعذبه على تضييع الشكر له .

فدأب في الشكر رجاء المزيد ، فزاده لله به أنسا ، وسرورا بحسن الظن به ، فبعث أصول الخوف والرجاء الى قلبه ، فكانا قائديه الى الله تعالى ، وصارا علمين في قلبه .

إن عارضته غرة (١) أهاج الإشفاق على الخوف ، فخاف عواقب الآخرة ، وإن عارضته فترة أهاج الرجاء ، فنفي فترته ، وإن عارضه لباس أهاج حسن الظن بالله والرجاء فقمعه .

* * *

(١) لبيان الفرق بين الرجاء الصادق والرجاء الكاذب الذي هو الغرة نسوق قول المحاسبي حيث يقول :

« الراجون ثلاثة : رجل عمل حسنة وهو صادق مخلص يريد بها الله فهو يرجو تبولها وثوابها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب إلى الله منها ، فهو يرجو قبول توبته وثوابها . نهذان رجاؤهما صادق .

وأما الثالث : فرجل يتأذى في الذنوب وفيما لا يحب أن يلقي الله به ، ويرجو المنفرة من غير توبة . وهذا يقال له مغتر صاحب غرة ، متعلق بالرجاء الكاذب » (آداب النفوس . المدل والفضل . وأعمال القلوب والجوارح ١١٣) .

عزة مقام التائبين

فهذا كان طريقه ، وهو الذى نصبه الله تعالى للمريد ليؤدب نفسه فلا يزهد الجاهل فى مقام المريد المقبل على ربه عز وجل .
تراه من الدنيا متقللاً ، ذليلاً خاشعاً ، حزيناً باكياً ، منقبضاً عن أبناء الدنيا (١) مظلوماً لا ينتصر (٢) ، ومسلوباً لا يكافأ ، شعثاً أغبر ، متقشفاً ، منفرداً غريباً .

لو اطلع الجاهل على قلبه ، وما استودعه الله تعالى من إحسانه ، وما أعقبه مما ترك من زينة الحياة الدنيا ونعيمها ، لرغب فى مقامه ، وعلم أنه الغنى الجميل ، المثلذ الفرح المسرور ، لأنه قد أدرك بغيته ، وظفر بطليته من ربه ، لأنه فارق المنغص من الدنيا ، المكدر الذى لا ينال إلا بهموم الحرص ، ونصب الطلب . وشغل القلوب به أن تناله ، وخوفها أن يزول فتفتقر بفقدته (٣) ، مع أسقام وأمراض ،

-
- (١) المراد بأبناء الدنيا : عشاقها ، الحريصون عليها ، المشتغلون بها عن الله ، أما العاملون فى عمرانها على مقتضى أمر الله تعالى ، المراقبون لله فى كل أعمالهم فليسوا مرادين هنا ، ولم يؤمر المؤمنون بمجانبتهم . انظر : (الكاسب ١٧٦) .
(٢) وذلك عملاً بقوله تعالى : (فن عقا وأصلح فأجره على الله) .
(٣) ليست هذه دهوة السلبية ، وإنما هى الإيجابية فى العمل لعمران الحياة كما أمر الله ، والسلبية بالنسبة للحرص الذى يشغل الإنسان عن دينه وربه .

وآفات ومصائب ، وفجائع ومكاره لا ينفك منها من ركن إلى ذلك مع حجب قلبه عن طيب ذكر ربه ، والأنس به ، والقرب منه ، وتركه طلب نجاته في آخرته ، وتعرضه لعذاب الأبد عن قليل بعد موته لأن الراكن المؤثر لذلك على طاعة ربه يتوقع الموت كما يتوقعه المقبل على ربه ، فإما الرضى وحسن المآب ، وإما السخط وسوء المآب .

فلا يجد الراكن إلى الدنيا حلاوتهما ، والرافض للدنيا يتنعم بهما ، لأنه قد ترك الدنيا لمن لا تحبب من طلبه ، ولا يترك مكافأة من عمل له ، ولا العوض له في الآخرة بما صبر عنه في الدنيا .

قد عقل لمن عمل ، وأيقن بسرعة لقاءه عاجلا ، فهو لأهل الدنيا راحم إذا اشتغلوا بما به يتعذبون ، وعن قليل إياه يسلبون ، ثم لا يحصى لهم من الحساب عليه ، مع ما حرموا مما ادخره المتقون عند ربهم ، وقدموا لأنفسهم .

يا أخى .. كيف يكون هذا المريد المتقشف المتقلل مسكينا وهو للخلفاء والملوك مزاحم .. ينظر إليهم وما بنوهم في الدنيا من همومهم ونصيبهم ، وما يعلم مما يلاقون من شدة الحساب بعد موتهم ؟ أم كيف يكون ذليلا من هو بالله عزيز ، وبذله وخشوعه يبتاع عز الأبد ، في جوار الرب الأكرم ؟

بل هو في الدنيا عزيز به ، فارق عز الدنيا ليعوضه مولاه الرفعة عنده في جنته .

أم كيف يكون غريباً من كان له أنيساً ؟

أم كيف يغم التفرد وقطع محادثة العباد من كان قلبه من الحكمة مؤيداً ، ولسانه بمناجاة الله دائماً ؟

أم كيف يكون ضعيفاً من رفض سعة الدنيا ، ولم يرتض بها عيشاً ، إذ أيقن أنه لها مفارق ، وأنه يطلب برفضها التبجح في سعة جوار ربه مع خلود الأبد .

لو بذلت مثل الذي عملت في الذي علمت (١) لم تؤد شكر نعمة في الدنيا .

فالذي عملت للإحسان لا يقوم بالعلم في الإحسان .

إحسان الله إليك في إحسانك ، لا يقوم به إحسانك .

لا تمكن حزيناً على ما فاتك من سهم غنيمتك أكثر من حزنك على ما فاتك من الغزو .

قد يعاقب العاصي بدون ما يستوجب ، مع العفو ، ومن لم يعاقب يوم أحد بالعزيمة ؟ ثم قال : (ولقد عفا عنكم) (٢) .

قال الحسن : قتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسرت رباعيته ، ودمى وجهه . وقتل كثير من أصحابه ، ثم قال تعالى : (ولقد عفا عنكم) يعني . ولم يستأصلكم .

(١) يعني : في مقابل الذي علمت من إحسان الله إليك بالعلم .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

ولو سلم أحد لفضله وكرمه عند الله لسلم آدم عليه السلام ، فكفاه بالخروج من الجنة عقوبة ، ونوح عليه السلام بعده ، وداود ، وموسى ويونس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم في سورة عبس ، وقال له أيضاً . (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) .

وقد عفا الله عنهم عما يستحقون ، فما ظن محمد أنه يجزئه إقراره بذنبه وتوحيده وصلاحه وخشيعته ، دون أن تاب ، وكذلك جميع من عوقب من النبيين .

فكن للعقوبات منتظراً ، إذا كنت من الذنوب غير متطهر ، ولا تستنكرها عند زولها ، فإنك مستحق لأعظم منها ، فالفو أمسك عنك عظيمها .

• • •

دلائل صدق الشاكرين

والشكر على نعمة التوبة واجب .

وعلاوة الشاكر هم بالقيام بالشكر ، وسؤال الله الشكر .

فإذا كان كذلك رضى بالقليل من الدنيا ، وخاف ألا يقوم بشكر الكثير ، ومن يكن همه الشكر وسؤال الله إياه لم يقنع ، فهو أبداً لهفان ، وأبداً عطشان .

واعلم أن الشكر لا يكون على الحرام إلا حراماً ، لأنك اعتقدت أن الحرام حلال ، فعظمته إذ أنزلته نعمة ، فأنت لله عاص باستحلالك الحرام ، وتعظيمك ما صغر ، وطلبك الازدياد مما كره الله عز وجل . فأما الشاكر في الحلال فقد يترك أن يطلب كثيراً من الحلال خوف ألا يقوم بشكر الكثير ، فيصبر عن الكثير لعظيم الشكر ، وصبر على القليل ولم يجاوزه ، لهما بالشكر ، حذراً ألا يقوم بشكر الكثير ، فكتبه الله تعالى من الصابرين الشاكرين ، لأن همه الشكر وترك الكثير وأسبابه ممكنة ، لإعظام الشكر (١) .

(١) من أجمع ما كتبه المحاسبي عن الشكر قوله :

« وأما الشكر فعرفة البلوى . فإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله تعالى ، وهي بلوى يختبر بها العبد لي شكر أو يكفر ، فهذا من الشكر . فإذا عرف العبد هذا أنه من الله ، وعده من نعمة عليه ، ولم يدخل فيه أحداً لا نفسه ولا غيرها فقد شكره . »

فصبر عن الكثير من الدنيا ، وصبر على القليل منها ، فهو صابر شاكراً ، والصبر لا يكون لعجز (١) ، ولا يكون صابراً إلا عن المقدرة ، والعاجز لا صابر ولا جزع ، والقادر يصبر عن السعة وهو عليها قادر ويصبر عن البلاء في الجزع ، فيمسك جوارحه ، فهو صابر لأنه حبس نفسه على قدرة على الجزع .

• • •

= فالشكر متفاوت ، والناس فيه متفاوتون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه أحد ، وليس له حد .

ومنه أيضاً وهو يشبه ما وصفنا إلا أنه أصل الشكر : أن يعرف العبد أن ما به من نعمة فمن الله معرفة قلب يعلم يقين لا تخالطه الشكوك ، فإذا عرف ذلك بقلبه ذكره بلمانه ، فحمد الله عليه ، ثم لم يستغن بشيء من نعم الله على شيء مما يكره الله . وأعلى من ذلك : أن تعد كل بلاء ينزل بك نعمة ، لأن الله من الالايما ما قد أنزله بغيرك مما هو أشد وأعظم من ذلك الذي أنزله بك . (آداب النفوس . العدل والفضل) . (١) يعني أن العاجز عن الحصول على الكثير من الدنيا لا يعتبر صابراً عنه ، والصابر على القليل لئلا يحمية مثلاً لا يعتبر صابراً . ومن هنا كان للصبر قوام الشكر وحقيقة الصبر كما يقول المحاسبي : أن يكون عند رضا وسرور وعلم بموائد الصبر . أما الصبر مع منازعة النفس صاحبها إلى الشيء فيسميه المحاسبي : تصبراً . أى : محاولة الصبر ، ومجاهدة في سبيل الحصول عليه (القصد إلى الله ورقة ١٠٩ أ ، ب) .

الملحق الاول
في أحكام التوبة

معنى التوبة وحلودها

اختلف العلماء في تحديد معنى التوبة . فمنهم من قال : إنها الندم ، وقد جاء في الحديث : « الندم توبة » . ومنهم من قال : إنها العزم على ألا يعود إلى معصية ، وآخرون قالوا : إنها الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من جمع المعاني الثلاثة ، وهو أكمل المعاني وأصحها . فهي : « الندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة ، والإقلاع عن الذنوب » .

وقال عبد الله بن المبارك : « التوبة : الندم على ما مضى من الذنوب والعزم على ألا يعود ، وأن يؤدي التائب كل فرض ضيعه ، ويؤدي إلى كل ذى حق حقه من المظالم ، ويلذيب البدن الذى زينه بالسحت والحرام بالهموم والأحزان ، حتى يلصق الجلد بالعظم ، ثم ينشأ بينهما لحم طيب ، ويلدق البدن ألم الطاعة كما أذاقه لذة المعصية » .

فهذا التعريف جامع لكل خصال التوبة المنصوص عليها في الكتاب والسنة ، واتى هى التوبة النصوح . ومنها يمكن تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » فهو الندم البالغ الحقيقى الذى ينشأ عنه هزال الجسد الذى نشأ فى ظل الحرام ، لا مجرد ترديد ألفاظ الندم باللسان ، وتصنعه أمام الناس ، ويمكن كذلك تفسير التوبة بهذا التعريف من قول الله تعالى : (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً

فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات). أى: إنه لا بد من تعويض ما صرفه العبد من عمره في اللهو والمعصية بالعمل الصالح ، فالتائب المقلع عن الذنب دون أن يعوض ما فاته بأعمال صالحة لا يرجى فلاحه ، فالآية تشترط الإيمان في التوبة ، والإيمان قول واعتقاد وعمل ، والعمل في الإيمان عمل بالفرائض وبجميع شعب الإيمان البضع والسبعين قدر المستطاع ، وهذه الشعب كلها أعمال صالحة فيما بين العبد وربّه ، وفيما بينه وبين الناس .

ومن شروط التوبة الصحيحة : أن يهجر التائب الذنوب لأنها معاص يغضب منها الله ورسوله ، لا لسبب آخر ، فإن أقلع عن الذنب لأنه ضار بصحته أو ماله فليس ذلك بتوبة ، وإنما هو عمل بهوى النفس لا أوجه الله . قال الله تعالى : (توبوا إلى الله توبة نصوحا) . ولم يقل : توبوا حفظاً لصحتكم ولا لأموالكم ، فإعانة الصحة والمال ليس هدفاً رئيسياً للتوبة ، وإنما هو أمر ثانوى لا يجوز أن تتجه إليه نية التوبة .

وعلى كل عضو من أعضاء الإنسان توبة . فتوبة العين كفها عن النظر إلى المحارم ، وتوبة السمع كفها عن سماع المحرم ، وتوبة اليد كفها عن تناول المحرم ، وتوبة القدمين كفهما عن السعى إلى المحرم ، وتوبة الفرج كفها عن الزنا ، وهكذا جميع الجوارح ، حتى العقل له توبة ، وهى كفها عن التفكير في المحرم ، واللسان يتوب فلا يدعو إلى مكروه عند الله ورسوله .

التوبة والعمل الصالح

كثير من الناس يظنون أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الإنسان عند الله ، ويقولون : إن هذا في جانب السيئات ، وهذا في جانب الحسنات ، ولعل ميزان الحسنات يرجح على ميزان السيئات فيفلح العبد غداً عند الله .

وقد عني الحارث بن أسد المحاسبي بهذه القضية أشد العناية ، وفصل القول فيها في كتابه المخطوط « آداب النفوس » وخلاصة ما قاله : إن تطهير النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل وأعمال البر الأخرى ، وهو يقيم على المعاصي للأسباب الآتية :

١ - أن قبول الله لأعمال البر من عبد مقيم على المعصية غير محقق لأن النفس المشغولة بلذة المعاصي قلما تخلص لعمل الخير ، فضلاً عن أن محل النية وهو القلب ملوث بالشهوات ، فيستحيل أن يخلص العمل الصالح إذا كثرت عليه الران من تتابع الذنوب وتشبع بها .

٢ - أن الإنسان مطالب بترك الشر كله ، وليس مطالباً بفعل الخير كله ، وعلى هذا أصبح ترك الشر في المنزلة الأولى الواجبة على الإنسان .

٣ - أن ترك الشر يوقع الإنسان في الخير من تلقاء نفسه . فالتائب عن الزنا يصبح عفيفاً ، والتائب عن الكبر يصبح متواضعاً ، والتائب عن البخل يصبح كريماً ، والتائب عن الكذب يصبح صادقاً ،

وهكذا جميع السيئات . يتوب منها فاعلها ، فيقع في أضدادها ،
وهي فضائل صالحة .

٤ - لا خير في عمل من أعمال البر خالطه الشر في قلب واحد .
فعمل البر إذا خالطه الشر أصبح شراً ، والشر شر كله .

وعلى هذا فهو يرى أن إقامة العبد على خصلة واحدة من الشر
يفرغ نفسه للتوبة منها . ويتقن هذه التوبة ، ويجاهد لاقتلاع جذورها
من القلب ، ويشغل نفسه بها ليل نهار ، مع القيام بالفرائض وحدها ،
خير ألف مرة من عمل البر وهو مقيم على تلك الخصلة من الشر
فإذا تاب من هذه الخصلة اتجه إلى غيرها ، وهكذا حتى يقتلع جميع
الجذور الشريرة من قلبه ، فيصبح قلبه خالصاً صافياً ، تصدر عنه
أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله . وهذا هو معنى الآية الكريمة
(إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات)

فقدم الله تعالى التوبة ، وهي اقتلاع جذور الشر والمعصية من
القلب أولاً . ثم أتبعها بالإيمان ، وكأن العاصي يحتاج إلى تحقيق أمنه
إلى جوار الله بدلاً من أمنه في جوار الشهوات التي أفسدت عقيدته
في الله ، وأتبع ذلك بالعمل الصالح ، وهو آخر ما يجب على التائب ،
فالعمل الصالح حينئذ يصدر عن قلب تائب مؤمن ، وحينئذ تحل
الصفات المضادة لحصال الشر محل خصال الشر كما قلنا ، وتلك هي
الحسنات مكان السيئات كما جاء في الآية الكريمة .

وعلى هذا يجوز أن يتوب العبد عن بعض السيئات دون بعض ،

فتوبته عما تاب منه مقبولة ، وبقي عليه ما يقترف من المعاصي . بشرط أن تكون توبته لله . لا حفظاً للصحة والمال ، أو حفظاً لمكانته ، أو خوفاً من القانون ، أو لعدم وجود ما يشتري به المعاصي .

الإصرار استمزاز بالله ورسوله

معنى الإصرار : أن تبقى في القلب حلاوة المعصية ، وتمنى مقارفتها ما وجد السبيل إليها ، فالشعور بالرغبة النفسية في المعصية ، وعقد القلب على حبها لإصرار عليها . وعلى هذا فالتوبة منها مع بقاء هذه اللذة في القلب ، وتمنى ارتكابها إن وجد إليها السبيل ، وحديث النفس الدائم بلذتها ، هذه التوبة تسمى توبة الكذابين ، وهي التي وصف أبو هريرة رضي الله عنه صاحبها بأنه كالمستهزئ بربه . فهي توبة غير مقبولة ، فضلاً عن إثم المخادعة لله الذي يرتكبه هذا التائب .

ولكن ، ماذا يصنع الذي انعقد قلبه على حب المعاصي ، فانغمس فيها ؟

لا طريق له إلا طريق الجهاد الشاق للنفس ، ذلك الجهاد الذي أوضحه المحاسبي في كتابه هذا الذي نقدمه لك . فنأخذ منهج المحاسبي الذي رسمه هذا الكتاب طريقاً له ، فإنه يصل بإذن الله إلى تحقيق التوبة قولاً وعملاً واعتقاداً ، وينجو من الإصرار على الذنوب .

وعليه قبل ذلك أن يهجر أماكن السوء . وأصدقاء المعصية ، وأن

يحافظ على ورد من القرآن كل يوم ، وأن يقرأ توار يخ الصحابة والتابعين والصالحين . وأن يذمن الدعاء في أوقات الإجابة ، ولا سيما في جوف الليل : أن يرزقه الله التوبة النصوح . فإن الله تعالى مجيب من دعاه . ومغيث من اضطر إليه .

وما هو الحد الشرعي للإصرار ؟

قال الجمهور : الإصرار هو غلبة المعاصي الصغائر على الطاعات . وقد أشار إليه الفقهاء في كلامهم عن العدالة وما يسقطها فقالوا : إن من زادت منه الصغائر على الطاعات اعتبر مصرأ ، وسقطت عدالته .

وقيل : يتحقق الإصرار بالمواظبة على صغيرة واحدة ، وتكرارها أو على بعض الصغائر وتكرارها كذلك ، وقالوا : إن تكرار مجموعة من الصغائر يشعر بما يشعر به أدنى الكبائر من قلة المبالاة بالدين . ولهذا قيل : الإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر .

التوبة من الصغيرة ومن الكبيرة

قبل أن نحدد طريقة التوبة من الصغائر وطريقة التوبة من الكبائر نتكلم عن تحديد معنى الصغيرة ومعنى الكبيرة أولاً .

اختلف العلماء في تحديد معنى الكبيرة ، فإذا علمنا حد الكبيرة ومعناها من خلال هذا الخلاف ، فكل ما عداها صغائر .

- ١ - قال الإسفراييني وتبعه السبكي : كل الذنوب كبار ولا توجد صغائر مطلقاً ، وذلك نظراً إلى عظمة الله وهيبته ، لا نظراً إلى نفس الفعل ، وقالوا : إن الصغيرة تتعاضد حتى تصبح كبيرة . واعتراضوا على هذا التعريف بقوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) . فالآية تذكر نوعين من الذنوب أحدهما الكبائر ، والآخر صغائر قطعاً . ورد الإسفراييني والسبكي ومن تبعهما على هذا الاعتراض بأن المراد بالكبائر في الآية : الكفر ، هكذا قال التفثازاني في شرح العقائد النسفية . وقال : إن جمع الكبائر في الآية يدل على أنواع الكفر لا على اختلاف الكبائر في النوع ، فالجمع يعني تكرار الكفر في كل ملة ، أو تكراره بالنسبة للأفراد من المخاطبين ، وذلك بناء على قاعدة : أن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد إلى آحاد ، كما في قولهم : لبس القوم ثيابهم ، وركبوا دوابهم . فيكون معنى الآية : إن تجتنبوا أنواع الكفر أو أفراده نكفر عنكم جميع ذنوبكم .
- ٢ - وقيل : الكبيرة ما شرع لها حد من الحدود ، كالزنا والسرقه . وهو تعريف ناقص . لأن القتل ليس فيه حد ، بل فيه قصاص . لأن القصاص حق العبد . والحد عقوبة مقررة لله لا للعبد ، ولأن من الكبائر ما لا حد فيه مثل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف . وعلى هذا لم يأخذ العلماء بهذا التعريف .
- ٣ - وقال الجمهور : الكبيرة : كل ما توعد الله عليه في الكتاب أو السنة . وقد اعترض على هذا التعريف بأن النياحة عند المصيبة من الصغائر ، مع أنه ورد فيها وعيد في السنة . وأجيب عن

هذا الاعتراض بأن الوعيد قد يكون للتهديد والإزعاج ، لئلا يتلفظ
النائج بالفاظ الكفر ، أما المراد في وعيد الكبيرة فهو التهديد الحقيقي .

٤ - وقال إمام الحرمين : إن الكبيرة كل جريمة تؤذن بعدم
اكتراث مرتكبها بالدين . والصغيرة على هذا كل جريمة لا تؤذن
بقلة اكتراث صاحبها بالدين . ويعترض على هذا بأن وطء الحائض
والأمة قبل استبراءها ، وقراءة القرآن للحنب أو للمعاض ، وتأخير
الزكاة والحج عن أول وقت الإمكان ذنوب تؤذن بعدم اكتراث
فاعلها بالدين ، وقد عدوها في الصغائر .

٥ - وقيل : الكبيرة ما كانت تشنئاً بين المسلمين ، وفيها هتك
لحرمة الله تعالى وهتك للدين .

٦ - وقيل ما كانت حراماً محضاً وسميت في الشرع فاحشة ، كاللواط ،
وشرع لها عقوبة محضة في الدنيا بالحد أو في الآخرة بالوعيد بالنار أو بالعن .
والكبيرة لا يكفرها إلا التوبة ، وأما الصغيرة فلها مكفرات
كثيرة كالصلوات الخمس ، لما ورد أنها كفارات لما بينهن ، والجمعة
إلى الجمعة . ورمضان إلى رمضان ، والاستغفار ، والعمرة .

ويخطئ كثير من الناس في أن الحج يكفر جميع الخطايا ، والحق
أن الحج يكفر حقوق الله تعالى ، ويبقى على الحاج أن يقضى ما فاته
من حقوق الله كالزكاة والصلاة ، ويرد مظالم العباد .

ويشترط لقبول التوبة من الكبيرة : رد مظالم العباد . كرد المسال
المسروق ، أو المأكول ظلماً بالباطل ، واستبراء المزني بها أو ولها
من انتهاك عرضه ، فإن خاف على حياته استبرأه بوجه عام دون تفصيل .

العودة في الذنوب

إذا تاب المذنب من ذنبه ثم عاد إليه ، فما الحكم ؟

يتقسم الناس هنا إلى قسمين :

- ١ - صادق في توبته الأولى . لم يصر على ذنبه ، وليس في نيته العودة إليه عند التوبة ، ثم عرض له فيما بعد ذلك ذنب آخر دون إعداد ولا ترتيب له ، ولا علم بوقوعه ، فارتكبه ، سواء كان ذلك الذنب هو الأول ، أو غيره من الذنوب ، وحينئذ يجب على المذنب أن يسارع بالتوبة بشروطها ، وصحت توبته الأولى والثانية مهما تكرر منه الذنب ، بشرط عدم الإصرار ، وعدم التفكير والترتيب لارتكابه.
- ٢ - تائب من ذنبه الأول على حب له ، وتمن لمقارفته مرة أخرى . لم يقتلع حب المحرم من قلبه . ثم عرض له الذنب فارتكبه ، وهذا مستهزئ بربه . وتسمى توبته توبة الكذابين . لأنه يتوب بلسانه على نية العودة إلى الذنب بقلبه .

• • •

الملحق الثاني
في بعض الأماري الواردة
في التوبة

فضل الله ورحمته

١ - عن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

« أخرجه مسلم والنسائي »

٢ - وعن صفوان بن عسال أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرصة أربعون عاماً أو سبعون سنة ، فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض ، فلا يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها » أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والبيهقي .

٣ - وعن ابن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « للجنة ثمانية أبواب ، سبعة مغلقة ، وباب منها مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه » . « أخرجه الطبراني وأبو يعلى بإسناد جيد » والأبواب المغلقة تفتح بشفاعة الرسول كما جاء في الحديث .

٤ - وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ، ثم تبتم لتاب الله عليكم » .

« أخرجه ابن ماجه وإسناده جيد »

٥ - عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً . فإن أصبح ذهباً اتبعناك ، فدعا ربه ، فأتاه جبريل فقال : « إن ربك يقرئك السلام ويقول : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة » .

« أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح »

٦ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » .

« أخرجه ابن ماجه والترمذى وحسنه » يغرغر : تبلغ روحه الحلقوم عند الموت .

٧ - وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذبوا للذهب الله بكم . وجاء يقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

« أخرجه مسلم » . وذلك لتحقيق صفة العبد في النسيان والخطأ . وصفة الله في الغفران والكرم .

٨ - وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب

إلى شراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ،
ومن أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهول .

« أخرجه مسلم وهذا لفظه . والبخارى نحوه . »

٩ - وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الله أفرح
بتوبة التائب من الظلمات الوارد ، ومن العقيم الوالد ، ومن الضال
الواجد ، فمن تاب إلى الله توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه
وبقاع الأرض كلها خطايا وذنوبه . »

« أخرجه ابن عساكر في أماليه . »

١٠ - عن عائشة قالت : جاء خبيب بن الحارث إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني رجل مقراف للذنوب .
فقال : تب إلى الله يا خبيب قال : يا رسول الله ، إني أتوب ثم أعود .
قال : فكلما أذنبت فتب . قال : يا رسول الله ، إذن تكثر ذنوبي .
قال : فعفو الله أكبر من ذنوبك .

« أخرجه الحاكم في المستدرک . ولم يكن مصرّاً على الذنب أثناء
التوبة ، فتوبة المصر على الذنب تسمى توبة الكذابين . »

١١ - وعن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : الصوم
جنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار . »

« أخرجه الترمذی وصححه وابن حبان عن جابر ، وأبو يعلى عن
كعب بن عجرة . »

١٢ - وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .
« أخرجه الترمذى وابن ماجه » .

١٣ - وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان رجل يسرف على نفسه ، فلما حضره الموت قال لبيته : إذا أتت فأحرقوني ثم اطحنوني ، ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله على ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً . فلما مات فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجعى ما فيك ، ففعلت ، فإذا هو قائم فقال : ما حملك على ما صنعت قال : خشيتك يا رب ، أو قال : مخافتك . فغفر له » .
« أخرجه الشيخان والنسائي ومالك » .

١٤ - وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فإكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجل فإكتبوها له حسنة » .
« أخرجه البخارى ومسلم » .

١٥ - وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله جل وعلا : وعزى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين وأمنين ، إذا خافنى فى الدنيا أمنت يوم القيامة . وإذا أمنت فى الدنيا أخفته فى الآخرة » .
« أخرجه ابن حبان فى صحيحه » .

١٦ - وعن العباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فهاجت الريح ، فوقع ما كان فيها من ورق نخر . وبقي ما كان فيها من ورق أخضر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما مثل هذه الشجرة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : مثل المؤمن إذا اقشعر من خشية الله تعالى رفعت عنه ذنوبه ، وبقيت له حسناته .

« أخرجه البيهقي . وأحمد عن سليمان . نخر : جاف .

١٧ - وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته . »
« أخرجه البخاري ومسلم .

شؤم الإصرار على الذنب وعلى هوى النفس

١ - عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها ، وإن زاد زادت ، حتى يغلف بها قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه (كلا بل ران على قلوبهم) .

« أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم

٢ - عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المستغفر من الذنب وهو مقبم عليه كالمستزىء بربه » .

أخرجه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً ، والوقف أرجح .

٣ - عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه » .

« أخرجه البخاري والترمذي والنسائي »

٤ - عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : نزلنا من المدائن على فرسخ ، فلما جاءت الجمعة حضرنا فخطبنا حذيفة فقال : « إن الله عز وجل يقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار ، وغداً السباق » . قلت لأبي : أيستبق الناس غداً ؟ قال : يا بني إنك لجاهل ، إنما يعنى . اليوم العمل ، والجزاء غداً . فلما جاءت الجمعة الأخرى حضرنا ، فخطبنا حذيفة فقال : « إن الله يقول : (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة » .

« أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد » المضمار :

(ميدان سباق الخيل)

٥ - وعن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ،
كرجل كان بأرض فلاة ، فحضر صنع القوم ، فجعل الرجل يجيء
بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا من ذلك سواداً ،
وأججوا ناراً وأنضجوا ما فيها . »

« أخرجه أحمد والطبراني والضياء المقدسي في المختارة » . والمراد
أن صفائر الذنوب تكثر حتى تهلك صاحبها ، كما تهلكه الكبيرة .

٦ - وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بأنعم
أهل الدنيا من أهل النار ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال له : يا بن آدم
هل رأيت خيراً قط (يعني في الدنيا) ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول :
لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بوئساً في الدنيا من أهل الجنة ،
فيصبغ في الجنة صبغة ، فيقال له : يا بن آدم ، هل رأيت بوئساً قط ؟
هل مر بك من شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ما مر بي بوئس
قط ، ولا رأيت شدة قط . »

« أخرجه مسلم »

٧ - وعن سمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ،
ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ،
ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته . »

« أخرجه مسلم »

٨ - وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم : قال « لتؤدن الحقوق إلى أهلها ، حتى يقاد للشاة الجلعاء من الشاة القرناء » وفي رواية لأحمد بزيادة . « وحتى للذرة من الذرة » .

« أخرجه مسلم والترمذى » الجلعاء : ليس لها قرن .

٩ - وعن عبد الله بن أنيس أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الله العباد عراة غرلا بهما ، قال قلنا : وما بهما ؟ قال : ليس معهم شيء . ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد ، كما يسمعه من قرب : أنا الديان ، أنا الملك ، لا ينبغي لأحد أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه ، حتى اللطمة . قال : قلنا : كيف وإننا تأقى عراة غرلا بهما ؟ قال : الحسنات والسيئات » .

« أخرجه أحمد وإسناده حسن » غرلا : غير مختونين .

١٠ - وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المفلس فينا ؟ قلنا : المفلس من لا دينار له ولا درهم ، قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » .

« أخرجه مسلم » وفيه خطر الإقامة على الذنب دون المبادرة بالتوبة .

١١ - وعن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحكك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : رجلان من أمتي بين يدي رب العزة ، فقال أحدهما : يا رب ، خذ لي مظلمتي من أخى ، فقال الله : كيف تصنع بأخيك ، ولم يبق من حسناته شيء ؟ قال : رب ، فليحمل من أوزاري . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك يوم عظيم ، يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم . الحديث . « أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد » .

١٢ - وعنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحكك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مخاطبة العبد لربه ، فيقول : يا رب ، ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى . قال : إني لا أجزى اليوم على نفسي شاهداً إلا مني . فيقول : كفى بنفسك اليوم حسيباً ، والكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ويقول لأركانه : انطقي . فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لכן وحقاً فعنكن كنت أناضل » . « أخرجه مسلم » .

١٣ - وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ضرب مملوكه سوطاً ظلماً ، اقتص منه يوم القيامة » .

ولمّا كان هذا الترهيب في السنة حثاً للمسلمين على المبادرة بالتوبة ، والله غفور رحيم يقبل التوبة عن عباده إذا صدقوا وتدموا .

فضل المبادرة بالتوبة

١ - عن معاذ بن جبل قال : قلت : يا رسول الله أوصني . قال :
« عليك بتقوى الله ما استطعت ، واذكر الله عند كل حجر وشجر ،
وما عملت من سوء فأحدث له توبة ، والسر بالسر ، والعلانية بالعلانية »
« أخرجه الطبراني والبيهقي » .

٢ - عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « النادم
ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل
عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله ،
وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا
السر عليهما إلى الآخرة ، واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتي بغتة ،
ولا يفترن أحدكم بحلم الله عز وجل ، فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم
من شراك نعله » .

« أخرجه الأصبهاني في ترغيبه ، وإسناده حسن » .

٣ - وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من
كانت لأخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل أن يؤخذ
منه يوم لا دينار ولا درهم ، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر
مظلمته ، وإن لم يكن له عمل صالح أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه » .
أخرجه البخاري وأحمد .

٤ - عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرمًا مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال ، فشر غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر » .

« أخرجه الترمذى وحسنه » فقراً منسياً : يشغلكم عن الطاعة .
هرماً مفنداً : يجلب عليكم الفند ، وهو الخرف وفساد العقل .

٥ - وعن شداد بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » .

« أخرجه ابن ماجه والترمذى وحسنه » .

٦ - وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سعادة المرء أن يطول عمره ، وأن يرزقه الله الإنابة » .

« أخرجه الحاكم ووافقه الذهبي » .

٧ - وعن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس فى آخيته ، يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع ، فأطعموا طعامكم الأتقياء ، وأولوا معروفكم المؤمنين » .

« أخرجه ابن حبان وابن أبى الدنيا » الآخية : حبل يشد إليه الفرس .

٨ - وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » .

« أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن » أدلج : سار من أول الليل ، والمراد : من خاف بادر بسلوك طريق الجنة .

٩ - وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد » .
« أخرجه مسلم »

١٠ - وعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو تعلمون ما أعلم ، لبكيتم كثيراً ، ولضحكتكم قليلاً ، ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون إلى الله ، لا تدرون تنجون أو لا تنجون » .

« أخرجه الحاكم وأحمد في الزهد ، والشيخان عن أنس » الصعدات الطرق . تجأرون : ترفعون أصواتكم .

التوبة تمحو الخطايا

١ - عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

« أخرجه ابن ماجه والطبراني وسنده من رجال الصحيح »

٢ - وعن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله ، أصبت حدثاً فأقمه على . فدعا نبي الله صلى الله عليه وسلم وليها فقال : « أحسن إليها ، فإذا وضعت فأنتئ بها » ففعل ، فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم فربحت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : « لقد تابت توبة لو قسمت على أهل المدينة لو سعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل » .

« أخرجه مسلم »

٣ - وعن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى عاجلت امرأة فى أقصى المدينة ، فأصبت منها ما دون أن أمسها ، فأنا هذا فاقض فى ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك . قال : فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً فدعاه ، فتلا عليه هذه الآية : (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) . فقال رجل من القوم : يا نبي الله ، هذا له خاصة ؟ قال : « بل للناس كافة » .

« أخرجه مسلم »

٤ - وعن أبي طویل أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها ، ولم يترك منها شيئاً ، وهو فى ذلك لم يترك حاجة (صغيرة) ولا داجة (كبيرة) إلا أتاها ، فهل لذلك

من توبة ؟ قال : « فهل أسلمت » ؟ قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله . قال : « تفعل الخيرات وتترك السيئات ، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن » . قال : وغدراقي وفجراقي ؟ قال : « نعم » قال : الله أكبر . فما زال يكبر حتى توارى .

« أخرجه الطبراني وهذا لفظه . قال الهيثمي : إسناده جيد قوى وكذا البزار » .

فضل الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

١ - عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : يا بني آدم ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستهدوني أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، فاسألوني أعطكم ، وكلكم ضال إلا من هديت فاستهدوني أهدكم ، ومن استغفرني وهو يعلم أنني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي » الحديث .

« أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه والبيهقي » . وهو توجيه إلى طلب المغفرة من الله ، وإلى طلب الغنى والهدى من الله ، لأن طلبهما من عند غير الله قد يوقع الإنسان في التخليط في المكاسب ، وفي العمل المضل عن هدى الله .

٢ - وعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال إبليس : وعزتك لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم في

أجسادهم . فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي ، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني .
« أخرجه أحمد والحاكم » .

٣ - وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .
« أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه » .

٤ - وعن أم عصمة العوصية قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يعمل ذنباً إلا وقف الملك ثلاث ساعات ، فإن استغفر من ذنبه لم يكتبه عليه ، ولم يعذبه الله يوم القيامة » .
« أخرجه الحاكم في المستدرک وقال : صحيح الإسناد »

٥ - وعن علي قال : كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعتني به بما شاء أن ينفعني ، وإذا حدثني أحد من أصحابه استخلفته ، فإذا حلف لي صدقته . قال : وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد يقترف ذنباً ، فيحسن الطهور ، ثم يقوم فيصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله إلا غفر له » ثم قرأ هذه الآية : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا الذنوبهم) الآية .
« أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان » .

٦ - وعن جابر عن أبيه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : واذنوباه ، واذنوباه ، فقال هذا القول مرتين أو ثلاثاً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجى عندي من عملي ، فقالها . فقال : عد ، فعد . ثم قال : عد فعد قال : قد غفر الله لك » .

« أخرجه الحاكم وقال : رواه مدنيون لا يعرف واحد منهم بجرح » ، وإنما استجاب الله لهذا الرجل لأنه جاء فزعاً إلى الله من ذنوبه ، نادماً عليها ، راغباً عازماً على التوبة ، فليس مجرد النطق بهذا الدعاء مستوجباً للمغفرة .

٧ - وعن البراء قال له رجل : يا أبا عمار ، (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) . أهو الرجل يلتقي العدو فيقاتل حتى يقتل ؟ قال : لا ، ولكن هو الرجل يلنب الذنب فيقول : « لا يغفره الله » .
« أخرجه الحاكم موقوفاً على البراء وقال : صحيح على شرطهما »

٨ - وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه بها عشر سيئات ، ورفعها بها عشر درجات » .

« أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم » .

٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا »

على ، فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة من الجنة لا ينبغي إلا لعباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة .
» أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي .

ودعاء الوسيلة هو : « اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته » .

١٠ - وعن أبي بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام فقال : يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه : قال أبي بن كعب : فقلت يا رسول الله ، إنى أكثر الصلاة ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : ما شئت . قال : قلت : الربع ؟ قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك . قال : فالنصف ؟ قال : ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك . قال : فالثلاثين ؟ قال : ما شئت وإن زدت فهو خير لك . قال : أجعل صلاتي لك كلها ؟ قال : « إذن تكني همك ، ويغفر لك ذنبك » .

١١ - وعن علي قال : « كل دعاء محبوب حتى يصلى على محمد صلى الله عليه وسلم » .

» أخرجه الطبراني ورواه ثقات والترمذي عن عمر موقوفاً .
والمراد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في أول الدعاء وفي آخره .

* * *

أحكام التوبة

للعلامة المحقق : عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي

معنى التوبة

التوبة بحسب الشرع تختلف باختلاف الذنب . فإن كان الذنب بينك وبين الله كانت التوبة منه كذلك بينك وبين ربك . وذلك : أن تترك فعله . وتندم عليه . وتعزم على ألا تعود إليه ، ويصح ذلك من جميع الذنوب ومن بعضها دون بعض . ولا يمنع من صحة التوبة عودك إلى ذلك الذنب بعينه بعد أن يوجد منك العزم على عدم العود إليه حين التوبة ، قال تعالى : « إن الله يحب التوابين » . والتواب صيغة مبالغة ، أى الكثير التوبة ، بمعنى أنه كلما تاب من الذنب ثم عاد إليه ثانياً بتقدير الله تعالى يتوب منه ثانياً ، ولا يصر على شيء من الذنوب .

والمؤمن كذلك ، فإن الإنسان قابل للموت فى كل نفس ، والموت تارة يكون بسبب كالمريض ونحوه . وتارة يكون بغير سبب كالموت فجأة . وذلك موجود شائع ، فمن أذنب وتاب بناء على خوفه من هجوم الموت ، ثم أذنب وتاب كذلك . صححت توبته باعتبار عزمه على ألا يعود . لعدم تحققه بدوام الحياة . وهو داخل تحت قوله تعالى : « إن الله يحب التوابين » . فهو محبوب الله تعالى على كل حال .

وأما إن كان الذنب بينك وبين مثلك من المخلوقات فلا بد أن تكون التوبة بينك وبين الله تعالى أيضاً ، لأن الله نهى عن ظلم العباد بعضهم

بعضاً . فحتاج التوبة إلى جميع ما تقدم مع زيادة المسامحة من ذلك العبد الذى ظلمته إن كان حياً وأمكن ذلك ، فإن كان ميتاً ، أو كان حياً ولم يسامحك لشدة منه لالتقصير منك فى حقه ، فأخلص فيما بينك وبين الله تعالى فى ترك ذلك الظلم ، والندم عليه . والعزم على ألا تعود ، ودم على ذلك ، فإن الله تعالى إما أن ييسر لك مسامحة ذلك المظلوم ، أو يكافئه عنك ويرضيه يوم القيامة . . وإياك إياك أن تيأس من رحمة مولاك .

أما التوبة بحسب الحقيقة فهى خلعة من خلع الله تعالى يلبسها لمن يشاء من أهل اختصاصه . وهى على قسمين : توبة العامة . وتوبة الخاصة . أما توبة العامة فهى : كشف قناع الأغيار عن وجوه الأسرار . وذلك بقتل النفس بسيف المجاهدة . قال تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » .

واعلم أن النفس كيفية فى البدن تعامل الجسم بسبب ما يقتضيه من المزاج . والنفس هى هذا المقتضى . أرأيت أن الشمس إذا وقعت على الزجاجات المتلونة تظهر من كل زجاجة بلون تلك الزجاجات . وكذلك الروح إذا اتصلت بكل جسم تظهر فيه بمقتضيات ذلك الجسم . فتظهر فى جسم الإنسان بمقتضيات الإنسانية . وفى الحيوان بمقتضى الحيوانية . وفى النبات بمقتضى النباتية . وكذلك فى المعادن . فهذه هى النفس . ولهذا تتفاضل النفس وتختلف ، ولا يمكن أن تدخل تحت نوع ولا جنس . بل يكاد أن يكون كل جسم من أجسام النوع له نفس لا تشبه نفس الجسم الآخر ، وإنما يظهر ذلك كله فى الأمزجة .

فإن اختلافها أثر اختلاف النفوس الذى هو أثر اختلاف الجسم .
قال تعالى : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت » . فأرض الجسم قبل إنزال ماء الروحانية عليه من سحاب اللوح
المحفوظ الخائل بيننا وبين سماء القلم الأعلى كامنة فيها النفس ككون النبات
فى الأرض . وماء الروحانية يخرج نبات النفس ، فن النفوس الخبيث
والطيب ، قال تعالى : « تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض
فى الأكل » .

فن قال إن النفس هى الروح فباعتبار أنها كيفية ظهرت بها الروح
بسبب اتصالها من أرض الجسم بهذا الجسم المخصوص ، وبعد انفصال
الروح تبقى عليها تلك الكيفية لحكمة لها ، بها تمتاز فى عالم البرزخ عن
النفس الأخرى ، وبها يجتمع الموتى ويتساءلون كما ورد فى الأخبار .

ومن قال إن النفس غير الروح فباعتبار أن تلك الروح كانت
موجودة ولا نفس ، كما ورد أن الله خلق الأرواح قبل الأجسام بألغى
عام . . والحق عندى أن الروح غير النفس ، وأن الأرواح لا تفاضل
فيها ولا تفاوت بينها ، وإنما التفاضل والتفاوت فى النفوس ، فمنها
النفوس الكافرة ، والنفوس المؤمنة ، والنفوس المطمئنة ، والنفوس
المطبعة ، والنفوس العاصية ، والنفوس الخبيثة ، والنفوس الطيبة ،
إلى غير ذلك من الصفات المختلفة التى تعترى النفوس . وأما الأرواح
فكلها طاهرة طيبة ، قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح
من أمر ربى » . وقال : « وما أمرنا إلا واحدة » .

وأما ما ورد من الأخبار من أن أرواح الكفار خبيثة معذبة فالمراد بها النفوس بحسب القول الأول . أرأيت أن الزبانية الذين يعذبون أهل النار وهم لا يتعذبون فيها لأنهم أرواح مطهرة .

وصل لإيضاح هذا الأصل :

قتل النفس عبارة عن التخلص من تلك الكيفية إلى فضاء الروحانية . والمراد بذلك رجحان جانب الروح على جانب الجسم . قال تعالى : « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأما هآوية » . فأثبت الثقل في موازين العيشة الراضية ، والثقل يقتضى الرجحان على ما يقابله في الكفة الأخرى من الميزان ، إذ لا بد من المقابل . ولهذا نقول : إنه لا بد من الذنب ولو في حق الأنبياء عليهم السلام . لأن أعمالهم توزن بأعمال أممهم ، بخلاف الكفار ، فإن الله تعالى يقول عنهم : « ولا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » . لأنه لا حسنات لهم توضع في كفة الحسنات . قال تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

فمن جاهد نفسه المجاهدة المشروعة ، ودخل الحلوة المسنونة . وراضها بريضة لا بدعة فيها ، فقد أدرك التوبة . وصدق عليه أنه تائب توبة العامة .

وأما توبة الخاصة فهي التوبة من التوبة ، قال شاعرهم :

ياربة العود خذى في الغناء وحركى من صوته ما وفى
فإن مسود قيص الدجا لونه الصبح بمنا لونا
وفاز بالتوبة قوم وما تاب من التوبة إلا أنا

وبيان ذلك : أن التوبة من صنع العبد ، والعبد وصنعه من صنع الله تعالى . فأى عبد صنع التوبة فقد غفل عن كون الله تعالى صنعه وصنع توبته ، والغفلة ذنب يحتاج إلى توبة ، ولهذا قلنا في توبة الخاصة هي التوبة من التوبة . قال تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » . ومن تاب الله عليه فقد صنع له توبة . ومن صنع له توبة فقد تاب ، فهو بمنزلة قوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . فشئتنا أثر من مشيئة الله تعالى ، كما أن توبتنا أثر من توبة الله علينا ، ولهذا كان من أسمائه تعالى التواب .

سر التوبة

أما سرها فحبة الله تعالى للعبد التائب . قال تعالى : « إن الله يحب التوابين » . وفي الحقيقة حبة الله تعالى للتوابين محبته لنفسه ، لأن التواب لا نفس له مع ربه كما قدمنا ، وذكر اسم الله الجامع « الله » في محبته للتوابين دون بقية الأسماء زيادة بشارية لهم بنهاية قربه .

والسبب في محبته تعالى للتوابين : أن المحبة القديمة التي هي عين الذات العلية لها ظهور تام في عالمها الذي هو عينها . ولها ظهور في عالم الأسماء والصفات ، ولها ظهور في عالم الأفعال والمتفعلات ، وجميع ما عدا الذات نسب وإضافات موجودة على التنزيه التام بالنسبة إلينا . غير موجودة بالنسبة إليه تعالى . ومقام التوبة يقتضي عدم الذنب ، والذنب هو عين الوجود مع الرب المعبود ، فإذا ذهب الإضافات وانقطعت

الإشارات ، ورجع تنزيه المنزهين إليهم ، ورد تسبيح المسبحين عليهم
وخرست المسمون ، وأبكت الواصفون ، وقرأ القارئ « سبحان ربك
رب العزة عما يصفون » فعند ذلك تظهر سلطنة المحبة القديمة المنزهة
عن كل تنزيه من غير تعطيل ولا تشبيه .

ولا شك أن من أسمائه تعالى التواب ، والتواب يجمع على توابين
بالنسبة إلى تماثيل العالمين ، قال تعالى : « إن الله يحب التوابين » . وإنما تعدد
التواب لضيق الإمكان عن سعة تجليات الواجب الوجود : فإن من أراد
أن يدخل قناطير الدقيق في سم الإبرة أدخل شيئاً فشيئاً لضرورة الضيق
لا لعجز القادر الحكيم ، والله بكل شيء عليم .

حال التوبة

وأما حال التوبة بحسب الشرع فهو النجاة من غضب الله تعالى انذى
كان العبد مستحقاً له بفعله الذنب ، فإن أهل السنة والجماعة أجمعوا على
أن العاصي في مشيئة الله ، فإن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . قال
تعالى : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . . . يعنى من غير توبة ، فإنه
بالتوبة يغفر الشرك أيضاً ، وتوبة المشرك هي الإيمان ، حتى لا يجوز
القطع للعصاة بالنار باعتبار هذه الآية ، وإنما لابد لطائفة من العصاة
لا بأعيانهم من دخول النار ثم يموتون فيها ، حتى لا يحسوا بألم العذاب
إلا ساعة خروجهم منها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا
أدخل الله الموحدن النار أماتهم فيها إماتة ، فإذا أراد أن يخرجهم منها
أمسهم ألم العذاب تلك الساعة » .

وهذا الحديث دليل على أن طائفة من الموحدين لم يشأ الله تعالى مغفرة ذنوبهم لا بد أن يدخلوا النار بسبب ذنوبهم حيث ماتوا من غير توبة . ولا بد من ذلك ليصدق الوعيد الوارد في حق العصاة ولو في البعض . وليصدق الوعد الوارد في بعض آخرين أيضاً بمغفرة الله تعالى لهم من غير توبة ، فيبقى الموحدون المغتفون للذنوب غير المستحلين لها إذا ماتوا من غير توبة . ولا بد من عذاب طائفة منهم والعفو عن طائفة أخرى . ولكن لا يعلم المعذبون من المعفو عنهم ولا يصح القطع للموحدين بالجنة إلا ما لا .. وأما قول القائل :

إن قلبي يقول لي واسأني يصدق
كل من مات مسلماً ليس بالنار يحرق

فلا يتخرج على مذهب أهل السنة والجماعة في حق طائفة من المذنبين لعدم القطع في حقهم بالمغفرة من غير توبة . فيتخصص بعض مفهوم لفظة (كل) الدالة على عموم مدخولها ،

وأما حال التوبة في الحقيقة فهو ظهور وحدة الوجود على التنزيه التام واستغراق الكثرة فيها . حتى يخرس التائب على الأبد ، كما ورد في الحديث : « من عرف الله كل لسانه » . « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

مقام التوبة

وأما مقام التوبة فهو بحسب الشريعة : ترادف نعم الله تعالى على ذلك العبد التائب . ولهذا تبدل جميع سيئاته حسنات ، قال الله تعالى : (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) . وهل هذا التبديل تبديل صورة السيئة مع بقاء ذاتها في الصحيفة ، أو محوها وإثبات حسنة في موضعها ؟ والذي يظهر لى : تبديل الصورة لا الذات . فإن صحيفة السيئات سوداء مظلمة . فإذا تاب العبد منها أشرق نور توبته الثابت في صحيفة الحسنات على صحيفة السيئات . فزال ذلك السواد وتلك الظلمة . فيبدل الله السيئات حسنات . وانتقلت إلى صحيفة الحسنات كما هي من العظم والخفة . ولهذا نقول : إن المذنب التائب أفضل من غير المذنب ، لأنه قام بغرض هو التوبة ، بخلاف غير المذنب . أو لأن السيئة أعظم من الحسنة . نظراً إلى عظمة المعصية وحقارة العاصي . فإذا تبدلت حسنة كانت أعظم من الحسنة التي هي حسنة ابتداء . لأن الحسنات وإن عظمت لا تبلغ عظم السيئات . قال تعالى في حق المحسنين : « وما قدرُوا الله حق قدره » .

ووصل في توبة البأس :

قال الله تعالى : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله في

الذين خلوا من قبل وخسر هنالك الكافرون» . وقال تعالى : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

وقد أجمع العلماء على أن الإيمان في وقت مشاهدة البأس والعذاب غير مقبول من أحد بمقتضى هذه الآية ، ولم يستثن الله تعالى من ذلك « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » . فبقى من عدا ذلك إيمانهم غير مقبول في وقت مشاهدة عذاب الله تعالى .

والحكمة في عدم قبول الإيمان وقت مشاهدة العذاب أن ذلك وقت انغلاق باب التوبة بالموت ، فلا يبقى للتوبة باب تدخل منه إلى حضرة الله تعالى عند خروجها من هذا التائب ، فإن كان كافراً لا بد أن يتوب من كفره عند موته ، ولكن يصادف باب التوبة مغلقاً فلا يفتح له . قال تعالى : « لا تفتح لهم أبواب السماء » . وقال تعالى : « يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » . . والإنسان في ليل ، فإذا مات طلع نهاره ، ولهذا قال تعالى : « يوم لا ينفع » الآية .

ولا يقال : إن باب التوبة يغلق بالموت ، والتائب من الكفر في وقت مشاهدة الموت له حياة ، فالباب غير مغلق حينئذ ، لأننا نقول التوبة من الكفر عظيمة ، لأنها رجوع عن شيء عظيم وهو الكفر . وانغلاق بعض الباب في وقت حضور الموت يمنع من خروجها منه لعظمتها . ولهذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث أن للتوبة

باباً عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب . فإذا ضاق
بغلق بعضه لا يحتمل التوبة من الكفر . فلهذا لا تقبل التوبة عند
روية البأس .

توبة المؤمن عند الموت :

وأما توبة المؤمن عند حضور الموت من بقية الذنوب فقد اختلف
العلماء فيها .

فقال بعضهم : لا تقبل . واستدلوا بقوله تعالى : « وليست
التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني
تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار » . وقال بعضهم : تقبل . واستدلوا
بما روى أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقبل توبة
العبد ما لم يغرغر » . وعن عطاء : ولو قبل موته بفواق ناقة . وعن
الحسن رضي الله عنه أن إبليس قال حين أهبط إلى الأرض : وعزتك
وجلالك لا أفارق ابن آدم وروحه في جسده . فقال : « وعزتي
وجلالى لا أغلق عليه باب التوبة ما لم يغرغر » .

والأولى أن يقال : إن التوبة مقبولة من سائر الذنوب ما عدا الكفر
ما دام في الميت بعض رمت يمكنه أن يدرك التوبة به ويقصدها .
أخذاً من إطلاق قوله تعالى : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » .
وغلق بعض بابها لحضور الموت لا يمنع من خروجها منه ، لأن عظمها
دون عظم التوبة من الكفر . ومن تأمل قوله تعالى هنا : « عن عباده »
ولم يقل : من عباده . فهم من إشارة الآية أن العبد إذا وصل في

قرب الموت إلى حالة لا يستطيع التوبة فإن الله تعالى يقبل توبته التي يقوم تعالى مقامه في صلورها عنه . وأما الآية السابقة فالمراد بالسيئات فيها أنواع الكفر ، بدليل قوله تعالى : (ولا الذين يموتون وهم كفار) يعني توبتهم لا تقبل بعد موتهم عند مشاهدة عالم الآخرة ، فبقى المعنى : أن الكفار لا تقبل توبتهم في وقت البأس . سواء تابوا حين حضور الموت في وقت الغرغرة أو بعده في انتقالهم إلى عالم البرزخ .

توبة المنتحر :

ومن قتل نفسه ثم تاب من ذلك في وقت مباشرة أسباب الموت قبل انفصال روحه من جسده فقبول توبته على هذا الخلاف المذكور والصواب أن يقال : إن تاب في حالة يقدر فيها على إزالة أسباب الموت والعودة إلى الحياة لم تقبل ، لأنها توبة مباشرة المعصية . وإلا قبلت .

وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يقتل بها نفسه في نار جهنم خالداً فيها أبداً . ومن تردى من موضع فهو يتردى في نار جهنم خالداً فيها أبداً » فمحمول على استحلال قتل نفسه من شدة غيظه . ولم يتقدم على ذلك حتى مات . وإلا فمن لم يستحل قتل نفسه . وباشر أسباب الموت . فإنه إذا أحس بذلك لا بد أن يتقدم قبل الموت ويهم بالخلاص ، وذلك توبة ، وتوبته مقبولة في تلك الحالة . فلا بد أن يكون الاستحلال محملاً للحديث .

توبة الكافرين :

وتقل عن الفقهاء : أن كل كافر تاب في حياته الدنيا قبل ساعة موته فإنه تقبل توبته ، وتوبته لإسلامه وبرأته من كل دين يخالف دين محمد صلى الله عليه وسلم . سواء كان كتابياً أو مجوسياً أو مرتداً أو غير ذلك من أنواع الكفر .

واستثنوا من ذلك جماعة : منهم من كان كفره بسبب نبي من الأنبياء عليهم السلام . يعنى كان مسلماً فكفر بسبب سبه لنبي من الأنبياء . لا الكافر الأصلي إذا سب نبياً من الأنبياء . فإنه يعزر ولا يقتل .

وذلك لأن من سب نبياً كان مؤمناً من قبل إيماناً صحيحاً ، بأن كان مسلماً ، لا إيمان دعوى كإيمان اليهود بموسى . والنصارى بيسى عليهما السلام ، فإن ذمته تعتبر مشغولة بكفره وحق عبد معصوم مما ذكر بيقين ، ولا تمكن المسامحة لغيبة ذلك النبي عنه . وشرط التوبة المسامحة في قبول حقوق العباد . فلا تكون توبته مقبولة بالنسبة إلينا ، أما فيما بينه وبين الله تعالى فإن أخلط في التوبة باطناً حيث لم تحصل المسامحة له من ذلك المسبوب لتعذرها فإن توبته مقبولة ولا يأس من رحمة الله تعالى .

ومن ذلك الكافر بالزندقة إذا لم يتب بنفسه قبل الأخذ . فإن توبته لا تقبل أيضاً . والمراد بالزندقة هنا : الذى لا يتدين بدين من الأديان . بل يعتقد أن الأديان كلها صواب وحق من جهة ما هي

عليه من الكفر بالله تعالى وبالأنبياء عليهم السلام . فإن توبة هذا لا يمكن أن نحصل أبداً ، فإنه لا يرى في العالم كفراً ولا شركاً ولا معصية من حيث ذلك موجود في العالم ، وجميع ذلك بالنسبة إلى ظاهر الشرع . وأما ديانة فتوبته مقبولة إذا أخلص لله تعالى . وميز بين عداوته وصداقته .

واعلم أن الأديان كلها بالنسبة إلى المتدينين بها من الخلق تنقسم إلى قسمين : دين واحد حق هو دين الإسلام ، وأديان جميعها باطلة وهي ما سوى دين الإسلام ، وأما بالنسبة إلى الخالق سبحانه وتعالى فجميع الأديان الباطلة والحقة مخلوقة له تعالى . وهو خالقها ، وقد قال تعالى : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً » . أي انقادوا إليه تعالى طائعين في حق المؤمنين ، ومكرهين في حق الكافرين لأنه لا خالق غيره فمن نظر إلى ما يظهر من كلا الفريقين وقال : إن جميع ذلك صواب فهو الزنديق ، ومن لم ينظر إلى ما يظهر من كلا الفريقين . وإنما نظر إلى يد الله العليا فوق أيديهم ، واعتقد أن جميع ما يصدر منها صواب فهو الصديق .

والفرق بينهما دقيق لا يدرك إلا بعناية من الله تعالى وتوفيق . فربما يظهر الصديق في حلية الزنديق ، وربما يظهر الزنديق في حلية الصديق . وموقع النظر واحد وهو الخلق ، فمن نظر إلى الخلق وقال : إنهم كلهم على صواب . فلما أن ينظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم ويقول ذلك فهو الصديق ، ولما أن ينظر إليهم

من حيث ذواتهم ويقول ذلك فهو الزنديق . وسبب ذلك أن من نظر إليهم من حيث صدورهم عن الصانع القديم فحكم بالتساوى بينهم لأن الله تعالى يقول : « ما في خلق الرحمن من تفاوت » . « الله خالق كل شيء » . . فلا يكلف الفرق والتمييز من حيث صدور الجميع عن خلق الله ، وهو صادق في حكمه بذلك ، لأنه مأمور بالإيمان بذلك ، وأما من نظر إليهم من حيث ذواتهم المأمورة وما هم عليه من الأحوال فحكم بالتساوى بينهم ، فذلك خطأ محض وجهل ، قال تعالى : « أفجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » . . وقال : « أفجعل المسلمين كالمجرمين ما الحكم كيف تحكمون » . وإنما يكلف إلى الفرق والتمييز حينئذ ، وهو كاذب في حكمه بالتساوى بينهم .

توبة الساحر :

ومن جملة من لم يحكم بقبول توبتهم أيضاً الكافر بالسحر ولو كان امرأة والسحر هو استعمال الشياطين الخبيثة بعد موالاتهم وصحبهم في أمر محرّم شرعاً . واختلفوا في كفر الساحر . فعند الشافعي رحمه الله إن اقترن بكفر فهو كفر ، وإلا فكبيرة . وعند أبي حنيفة رحمه الله هو كفر مطلقاً . ومنشأ الخلاف أن موالات الشياطين وصحبهم تتصور بدون متابعتهم في الكفر ، فن قال بالأول علل بذلك ، مستدلاً بقضية سليمان عليه السلام واستعماله الشياطين ، قال تعالى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » ومن قال بالثاني علل بأنه لا يتصور

ذلك إلا بعد متابعتهم في الكفر ، وأما قضية سليمان عليه السلام فليست من قبيل السحر . لأنها خلافة إلهية بتسخير العوالم له من جهة الله تعالى . وبعد حكم أبي حنيفة بكفر الساحر بناء على أنه لا يتصور منه السحر إلا بعد متابعة الشياطين في كفرهم حكم بعدم قبول توبته ، وهذا بحسب ظاهر الشرع أيضاً ، وأما ما بينه وبين الله تعالى فإن باب التوبة مفتوح لكل إنسان مدة حياته كما قدمنا .

توبة الرافضة :

وأما توبة الرافضة فن سب للشيخين أو لعنهما أو أحدهما يكفر عند أبي حنيفة ، وكذلك إذا أنكر خلافتها أو أبغضها لحجة النبي صلى الله عليه وسلم لها ، وإن فضل علياً عليهما فهو مبتدع ، وإن أحبه أكثر منهما لا يؤخذ بذلك ، وبقية الأئمة لم يحكموا بكفر من سب الشيخين أو لعنهما ، وإنما أثبتوا له الفسق والتأديب .

وقد استدلل أبو حنيفة بما ثبت عنده من حديث الديلمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأيتموه يذكر أبا بكر وعمر بسوء فاقتلوه فإنما يريدنى والإسلام » وإذا كفر من سب الشيخين عند أبي حنيفة يقتل ولا يقبل توبته ، بناء على قول النبي صلى الله عليه وسلم : « فإنما يريدنى » . فقد أنزل الشيخين منزلته في هذا الحديث ، فجعل ذكرهما بسوء عين ذكره بسوء خصوصية لها ، دون بقية الصحابة لما لها من الفضيلة والمزية على الجميع .

فصل فى أسرار الشريعة فى عدم قبول توبة هؤلاء الأربعة :

وهم الذى سب نبياً ، والذى سب الشيخين ، والزنديق ، والساحر
على حسب ما ذهب إليه إمامنا أبو حنيفة رحمه الله .

أما الذى سب نبياً من الأنبياء عليهم السلام فالسر فى عدم قبول
توبته فى ظاهر الشريعة أنه بسببه ذلك النبى قطع الرقيقة التى يأتیه الإمداد
منها . والمتصلة فى قلبه العامر بالإيمان إلى حضرة رقائق الأنبياء عليهم
السلام .

وذلك أن كل مولود يولد على فطرة الإسلام . يعنى على تلك الرقيقة
المتصلة ، فإذا هوده أبواه أو نصره أو مجسه أشغلاه عن ملاحظة تلك
الرقيقة المتصلة فيه ، فإذا سب نبياً مع ذلك قبلت الشريعة توبته ،
لعدم ملاحظته لتلك الرقيقة بعد . وأما المولود على الفطرة إذا نشأ
ملاحظاً لها ، ولم يشتغل عنها بشىء من الكفر ، أو اشتغل ثم لاحظها ،
وتحقق بها ، فإنه إذا سب نبياً من الأنبياء عليهم السلام تنقطع تلك
الرقيقة المتصلة بقلبه من حضرات الأنبياء عليهم السلام ، فلا يمكن
اتصالها بعد ذلك لتعود الفطرة الإسلامية . فلهذا لا تتصور التوبة
بحسب ظاهر الشريعة .

وإن رقائق العالم الروحاني والعالم الجسماني جميعها متصلة بـ رقائق
الأنبياء عليهم السلام ، وراقائق الأنبياء عليهم السلام متصلة بالحضرة
المحمدية بحكم الميثاق المأخوذ منهم بالإيمان به وبنصرته ، فهي ممددة لكل
بعد استمدادها من حضرة الأزل ، فهي عرش التجليات الرحمانية ،

والشرع الذى هو قلب حروف هذا العرش هو الحاكم بعد قبول توبة من انقطعت رقيقته عنه ، وإنما يأتيه قبول التوبة باطناً فيما بينه وبين الله تعالى من جهة وجهه الخاص الذى لربه حيث قال تعالى فى ذلك : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

فحين انقطع عنه حبل الوريد بسبب انقطاع الرقيقة المذكورة كان الله تعالى أقرب إليه من غير تلك الرقيقة ، فوصله به لشدة ما رأى من إخلاصه فى توبته .

واعلم أن رقائق القلوب جميعاً خارجة من اللوح المحفوظ مثل خروج الشعاعات المنبعثة من عين الشمس المنبثة على جميع الأجرام الأرضية . كل جرم له رقيقة متصلة به خارجة من منبع الشعاعات ، متميزة فى ذاتها ، لكن لا يظهر تميزها ، فإذا حجبها حاجب عن ذلك الجرم الأرضى رجعت إلى أصلها ، الذى هو ينبوع الشعاعات كلها ، وكانت متميزة كما كانت قبل ذلك ، ولكن تميزاً خفياً لا يدرك . وليست الشعاعات نفس الشمس ، وإنما هى رقائق ممتدة منها ، مستعدة للاتصال بالأجرام ، هكذا فافهم جميع الروحانيات فى هذا العالم .

ثم إن ذلك اللوح المحفوظ الذى ذكرنا أنه بمنزلة الشمس فى خروج الرقائق منه ، واتصالها بالأجرام الأرضية والسموية مجلى لظهور القلم الأعلى الذى هو روح القدس فيه ، وموضع لتفصيل علومه ، وجميع ما ينزل إلينا من اللوح المحفوظ إنما هو مستمد منه ، والرقائق الخارجة منه إنما هى فى الحقيقة خارجة من ذلك القلم الأعلى ، لأنه محل إجمالها .

فأول ما تفصل من إجمال روح القدس في اللوح المحفوظ أرواح الأنبياء عليهم السلام ، ثم أرواح بقية العوالم متفصلة من مجمل أرواح الأنبياء ، ولهذا قلنا : في عدم قبول توبة من سب نبياً من الأنبياء عليهم السلام بعد ملاحظة تلك الرقيقة المتصلة ، وعدم الغفلة عنها : لأنها تنقطع فلا يمكن وصلها شرعاً إلا من الوجه الخاص الذي لله تعالى إلى كل شيء . وقول الخليل عليه السلام عن قومه : « فن تبغى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » مشير إلى ما ذكرناه .

وأما عدم قبول توبة من سب الشيخين أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، فإنه صلى الله عليه وسلم أنزلها منزلة نفسه فيما تقدم من الحديث ، ويؤيد ذلك في الصديق قوله تعالى : « ثاني اثنين إذ هما في الغار » . أى واحد من اثنين غير معين ، فأوقع الإيهام لوجود الشبه بينهما ، فروحانية الشيخين مستمدة من روحانيته صلى الله عليه وسلم قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » . وروحانيته صلى الله عليه وسلم هي روح الكل المستمدة منها أرواح الأنبياء ، فوقع الاشتراك في الاستمداد منه صلى الله عليه وسلم ، ولهذا ورد في الحديث : « العلماء ورثة الأنبياء » . وهذا الاستمداد الروحاني لعلماء الأمة يتفاوت في ذاته . فليس استمداد الصديق كاستمداد عمر رضي الله عنهما ، ولا استمدادهما الأتم كاستمداد غيرهما من الصحابة وسائر الأمة ، وحيث كان حظ الشيخين منه صلى الله عليه وسلم أوفر حظ ، واستمدادهما من مقامه الشريف أكمل استمداد الحق به صلى الله عليه وسلم في كفر من سبهما وعدم قبول توبته دون بقية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وأما عدم قبول توبة الزنديق في ظاهر الشرع فباعتبار ضعف إدراكه سر الفرق في عالم الحكمة . فإن الله تعالى له في طي هذا الوجود عالمان : عالم باطن يسمى عالم الفطرة ، وعالم ظاهر يسمى عالم الحكمة . وعالم الحكمة هو سر عالم الفطرة ، لأنه موقع النظر الإلهي ، وعالم الفطرة بمنزلة الشعاع لهذا النظر ، والعين حضرة الصفات . فمن أهمل موقع النظر فقد أعرض عن المقصود ، فإن المنظور إليه هو الناظر ، والزنديق أعرض عن المقصود من حيث أسرارهِ . وهو الفرق ، قال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » . ومتى جاء ذلك الأجل فقد ذهبَت السموات والأرض وما بينهما وبقي الحق الذي خلق كل ذلك به كما هو قبل أن يخلق ، والشرع هو ذلك الأجل بعينه . فإن كل جزء من أجزاء السموات والأرض وما بينهما له حكم في الشرع . وذلك الحكم أجل لذلك الشيء تنتهي به مدة حياة ذلك الشيء . ثم ينتقل بعد معرفة حكمه إلى أصله وهو العدم . وبقي الحق الذي خلق به ذلك الشيء يعامل بذلك الحكم من حيث حكم به على نفسه .

فمن عرف الله تعالى المعرفة الصحيحة إنما عرفه من أحكامه وهو الشرع . والشرع مختلف الأحكام ، وراد على كل شيء بحسبه . فمن أعرض عنه بنظره إلى عالم الفطرة فقد كفر . لإعراضه عن الحق تعالى . ولا تقبل توبته لأنه يزعم الإقبال على الله تعالى باشتغاله بعالم الفطرة . وعالم الفطرة ليس بمقصود . بل هو طريق إلى المقصود وهو عالم الحكمة . فإن عالم الفطرة أنوار . وعالم الحكمة أنوار أيضاً . لكن

مقلوبة . ظهرت في صورة الظلمة ، والمأشى في الظلمة يحتاج إلى
النور . والمأشى في النور لا يحتاج إلى الظلمة . والعوالم جميعها إنما
هى في ظلمة . فتحتاج إلى النور . قال تعالى : « يوم ترى المؤمنين
والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .. وأما الحق تعالى فهو
نور الوجود لا يحتاج إلى ظلمة .

والزنديق نازع الربوبية فأشرك بربه . وطرد عن قرب . قال تعالى :
« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح
في مكان صحيق » . وتقبل توبته باطناً إذا رجع إلى تصفح أسرار عالم
الحكمة . وأقبل على الله تعالى من حيث أحكامه ، فعرفه فيها . كما
ذكرنا ، لحصول المقصود . ولكن لا يعتبر ذلك من حيث الشرع .
لأن رجوعه عن ذلك إلى هذا ليس بشيء غير ما هو عليه ، والشرع
متنزل عن العرش ، فلا يحكم على ما تحته إلا بما تعطيه الحضرة
الرحمانية . لأنها المستوية عليه دون بقية الحضرات . وهى مقتضية
للأنفع ، والأنفع لمن هذا وصفه عدم قبول توبته تمحيصاً له بنيران
البعد والطرد في عين القرب والإقبال .

ولهذا إذا جاء تائباً من تلقاء نفسه قبل ، لأنه أقبل ظاهراً فيقبل
ظاهراً ، وحين أقبل باطناً قبل باطناً .

وأما الساحر فلا تقبل توبته لأنه خلط الحق بالباطل ، مشتق من
السحر ، وهو قبيل طلوع الفجر ، واستعمال الشياطين بموالاتهم دعاء
الباطل في عين الحق . بخلاف أهل التسخير ، فإنهم يدعون إلى الحق

فى عىن الباطل ، ولهنا يسمى الأول سحرأ الكون الأصل عندهم الباطل ، كما أن الليل أصل لوقت السحر ، والثانى على العكس ، ومن خلط الحق بالباطل كان الظاهر عنده الباطل فستر به الحق ، والستر هو الكفر ، فلا توبة له إلا باطناً ، يرجوعه عن خلط الحق بالباطل ، إلى خلط الباطل بالحق ، بحيث يصير الأصل عنده الحق . ولكن لا يعتبر ذلك شرعاً لما قدمناه من أن الحضرة الرحمانية مقتضية للأتفع ، فافهم سر الشرع والله الموفق .

فخرس الكتاب

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة المحقق
٢١	بداية العودة إلى الله
٢٤	معرفة الله - خلائق النفس الأمارة بالسوء
	العزم على تأديب النفس
	الوعظ والتذكير - عزل النفس عن مواطن المعصية -
	إدمان معاتبتها وتخويفها - النفس تأتي مفارقة الشهوات
	علاجها بالصوم والجوع - الحنين إلى بعض الشهوات
	دون بعض - عقوبات مشروعة للنفس
٣٠	بداية الهداية
	بين عقوبتها والتخفيف عنها - النفس تسلم قيادها
٣٣	خداع النفس
	الحنين إلى الشرف - العجب - توهم فضلها على غيرها
	من الناس - اعتقادها مصطفاة وصادقة
٣٦	دلائل الصديق في التوبة
	الجد في الطاعة - الحزن والخوف - سقوط الكلفة في
	الطاعة - العلم بطريق التوبة - علم الرجاء والشكر
	والخوف

الموضوع	الصفحة
عزة مقام التائبين ..	٤٢
دلائل صدق الشاكرين ..	٤٦
الملحق الأول في أحكام التوبة ..	٤٩
معنى التوبة وحدودها ..	٥١
التوبة والعمل الصالح ..	٥٣
التوبة من الصغيرة ومن الكبيرة ..	٥٦
العود في الذنب ..	٥٩
الملحق الثاني في بعض الأحاديث الواردة في التوبة ..	٦١
فضل الله ورحمته ..	٦٣
شؤم الإصرار على الذنب وعلى هوى النفس ..	٦٧
فضل المبادرة بالتوبة ..	٧٢
التوبة تمحو الخطايا ..	٧٤
فضل الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ..	٧٦
أحكام التوبة ..	٨١
معنى التوبة ..	٨٣
من التوبة ..	٨٧
حال التوبة ..	٨٨
مقام التوبة ..	٩٠

رقم الإيداع ١٩٧٧/٢٦٣٩

التوقيع الدولي ٤٦ - ٧٠٥٣ - ١٩٧٧

دار النضر للطباعة والإستلامية
٢ - شارع نشاط على شبرا القمامة
٧٧٣٢٢١ هـ

دار الفَضِيلَة

للنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّصْدِيرِ

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت. فاكس ٦٦٤٢٢٢
الكنية : ٧ شارع الجمهورية - طبلين - القاهرة - ت. ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة - ص.ب. ١٥٧٦٥ ت. ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية

دار المعرفَة

40 شارع فيكتور هيكو - الدار البيضاء
ص.ب. 4150 - ت. 300567 - 309520